مكتبتنا العربية

الموسوعة الصغيرة
٨٣

الأنسان في أدب
وادي الرافدين
د. يوسف حبّ

المَوسُوعة الصَغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدرها دار الحاحظ للنشر

رئيس التحرير: مُوسى كريدي

أدَبُ الحَربَ

ياسين طه حافظ

السعر ٥٠ فلسا
دار الحرية للطباعة - بغداد

مكتبتنا العربية

الانسان في أدب وادي الرافدين

د . يوسف حبي

منشورات دار الجاحظ

١٩٨٠ بغداد

(المؤلف في سطور)

د . يوسف حبي

* ولد في الموصل عام ١٩٣٨ ، واكمل دراسته في روما .
* حصل على شهادات عالية في الفلسفة واللاهوت والقانون ووسائل الاعلام وعلم الاجتماع ، وبحثه أطروحة في الحضارة العربية لنيل دكتوراه دولة من جامعة السوربون .
* يكتب منذ السنينات في مجلات عربية وأجنبية ، ويتقن عدة لغات .
* عضو المجمع العلمي العراقي ورئيس تحرير مجلة (بين النهرين) .

مؤلفاته :

(١) حنين بن اسحق (٢) تاريخ ايليا برشينايا (٣) الآثار العلمية لارسطو (تحقيق) (٤) كتاب المولودين (تحقيق) (٥) كاتس الموصل (تحت الطبع) (٦) من الاعماق (تحت الطبع) .

فجر فكر اصيل

الانسان بداية ونهاية ، اصل وغاية ، ركيزة وذروة ، وهو بذلك فرد ومجموع ، بل عالم وكون . يوغل في غابر الزمن السحيق بعيدا ، ويندفع نحو آفاق المستقبل خالدا .

بوسعنا ان نتخلّى عن جميع الحقائق ما خلا حقيقة الانسان . وفي امكاننا التنكر لأي واقع كان ما عدا واقع الانسان . وفي مقدورنا اهمال اصل ومصير كل الكائنات الا اصل الانسان ومصيره ، فهي حقيقتنا ، وهو واقعنا ، واصلنا والمصير .

لذا سعى الانسان ، منذ القدم ، وعبر محاولات شتى ، الى قراءة المعطيات المتوفرة ، والغوص في الاعماق الاكيدة ، واستلهام المؤشرات

المتاحة،بغية الوصول الى الكشف عن سر الاسرار، وما ألوف المجلدات التي وضعها حكماء وفلاسفة وعلماء عن الانسان سوى قبس من شموس وشاهد من الشواهد على أهمية الموضوع وواقعيته ، في كل الازمنة والبلدان والحضارات ...

وليس بحثنا اليوم علميا لكي نرجع الى عهود ما قبل التاريخ،ونقف على أول آثار الانسان القديم . انما البحث فكري حضاري . لذلك وجب ان نعتمد النصوص المكتوبة والافكار المسجلة ، ونستوحي شيئا من المعالم الآثارية والفنية والعمرانية ، لتكوين فكرة عن الانسان أخذ بها المرء عن ذاته ومجتمعه في فترة من الزمن . وتركيزنا في هذه العجالة على (مفهوم الانسان في أدب وادي الرافدين) ، لا سيما في الفترة الاولى من التاريخ الحضاري لسكان وادي الرافدين .

قد كان يظن الى سنوات خلت ، ان بواكير

الفكر والعلم في تاريخ البشرية وفدت الينا من حوض وادي النيل ، أو أن النضوج الفكري لم يتخلص من مرحلتي الطفولة والمراهقة الا على يد الاغريق وحكمائهم . غير أن التنقيبات التي بدأت منذ الثلث الاخير من القرن الماضي ، ولا تزال مستمرة حتى اليوم ، صححت هذا الرأي الخاطىء ، وأرجعت بدايات الفكر والعلم ، بشكل عميق ومكتمل ، الى بلاد وادي الرافدين ، مهد الحضارة البشرية .

ولا تزال الدراسات نادرة حول حضارة وادي الرافدين القديمة ، لا سيما الفكرية منها . لذا كان البحث الذي اخترناه شيقا وصعبا .

امور ثلاثة نود التنويه اليها ، مستبقين الحديث ، وهي :

١ ــ كلما أمعنّا في دراسة ما لدينا من نصوص وشواهد ادبية سجلها قدامى العراقيين ،

تبيّن لنا ، على قلة هذه البينات ، عمق فكرهم ، واصالته ، واتزانه ، وانسانيته .

٢ ــ يجب تصحيح ما هو شائع في معظم الدراسات والموسوعات على أن المصريين اول من عرفوا التمدن والحضارة ، وعلى ان اليونان اول من نفحوا العالم بفكرهم وعلمهم ، واستبدال هذا الرأي برأي جديد صحيح مفاده ان قدامى العراقيين ، والسومريين بخاصة ، هم الذين فعلوا ذلك .

٣ ــ التمييز بوضوح بين الكمية والكيفية ، وتقييم الرمز على أنه حقيقة خلاقة . يدفعنا ذلك الى اكتشاف العمق والابداع في تعبير مفكّري وادي الرافدين .اما التشويه والازدواج في مفهوم الانسان فتخلّف ناجم عن أقوام تلتهم ولم تتمكن من استكمال المسيرة النيّرة بسلام .

ولا يحسبنّ أحد اننا بهذا نزكّي كل ماجاء في

فكر انسان وادي الرافدين قديما ، فالمعايب كثيرة. انما القصد القضاء على أسطورة شائعة تقول ان الفكر بمعناه الحصري العميق ، أي الفلسفة ، لم يبدأ الا مع فلاسفة الاغريق ، وان كل ما سواه تخيلات صبيانية وتصورات شعوب بدائية متخلفة

وقد لا تتسع المجلدات الضخمة لايضاح هذا كله . انما ابراز دور بلاد وادي الرافدين الحضاري ضرورة لسببين :

أولهما ، الاعتراف بالاسبقية لتلك العقول الثاقبة المنفتحة التي أبدعت منذ اكثر من خمسة آلاف سنة ، فكرا ورقيّا لا مثيل لهما في تاريخ البلدان الاخرى وحضاراتها ؛

وثانيهما ، التأكيد على هذه الاصالة التي لحضارة وادي الرافدين القديمة ، ومحاولة تفحيا الحياة يخلق الصلة الحضارية قوية بيننا وبين الماضي ، لان التراث ركيزة البناء والتقدم .

نظرة انسانية متزنة

تتجلّى خصوصية فكر حضارة وادي الرافدين قديما بنظرة انسانية متزنة .

وتكبر في أعيننا هذه الخصوصية حين نستوعب الاشكال العديدة والمفاهيم الرمزية المتنوعة التي بها عبّر الناس عن انفسهم ، نظريا واجتماعيا ، ثم عمليا ، عبر تاريخ البشرية المديد . وتجاوبا مع العقلية الحضارية والثقافية الخاصة بكل فرد ، وكل شعب ، وكل فترة زمنية . والتاريخ مشحون بشواهد وامثلة فيها الكثير من التطرّف :

فمن الأخذ بانفصام وازدواجية داخل الانسان نفسه : فهو روح ومادة ، ونفس وجسد ، الى

اعتبار الانسان قطعة من قطع مواد البنيان الارضي المادي ، والى تغييب الانسان في عالم فوقي هو عالم الالهة والاجرام السماوية .

وسط مفاهيم كهذه ، عرقلت مسيرة الانسان الحضارية وخلقت تصورات وهمية فاسدة وعقدا نفسية شوّهت شخصيته ، يحق لنا بكل اعتزاز ان نقيم وزنا لخصوصية فكر من سبقنا بقرون عديدة في هذه البلاد مهد الحضارات الانسانية العريقة . وبوسعنا تحديد مفهوم الانسان في ادب وادي الرافدين بنظرة متزنة ، كونية وكلية .

ونقصد بالنظرة الكونية عدم فصل الانسان عن الكون ، من جهة ، واعتباره قطعة منه لا غير ، من الجهة الاخرى . لان الصحيح هو تميز الانسان عن « الشيء » . وهذا ما اجتهد فلاسفة كثيرون ، فيما بعد ، في تحديده ، فاختلق بعضهم ،

ونجح غيرهم • وتكمن الصعوبة في كيفية التوفيق بين ضرورة تمييز الانسان عن الاشياء ، ووجوب ربطه بالكون بعلاقة كيانية حميمة •

فالفلاسفة اليونان الذين سبقوا سقراط وافلاطون وارسطو اعتبروا الانسان قطعة من الكون ، وذلك بارجاعه كليا الى الماء او الهواء او النار ••• دونما تفريق بين أصول واصول ، وبسبب الخلط الفظيع بين البحث العلمي والفكري ••• ولم يفيض لفلاسفة من العصور المتأخرة ايضا ان يتجنّبوا هذه المزالق ، فنراهم للتخلص من « مثالية » الوجود الانساني يقعون في حبال « محدودية » مادية ضيّقة • وان كثيرا من المفكرين ، لتخليص المفهوم الانساني من نظرة مادية ضيقة ، اعتبروا الانسان قبسا من نور الشمس او نفحة من اله ••• ولاصطدامهم بواقع الانسان المادي والجسدي العاطفي ، اختلقوا

تجزئة كانت وبالا على البشرية جمعاء ، في معظم العصور ، وعلى كل صعيد • لذا كان لا بد من العودة الى اصالة النظرة الكلية •

وتفهم بالنظرة الكلية عدم تجزئة الانسان الى روح ومادة ، ونفس وجسد ، وفكر وعمل • كما نفهم بها عدم فصل الدين عن الدنيا ، والحياة الروحية عن الحياة الاجتماعية ، والمثل الاخلاقية عن الممارسات اليومية ، وحياة الدنيا عن حياة الآخرة • ولئن غدت هذه التصريحات جليّة ومقبولة في ايامنا ، يجب القول انها لم تكن بهذا الوضوح حتى بدايات الفكر المعاصر ، ولا زال البعض يتنكرون لها متمسكين بازدواجية لها اكثر من مردود سلبي على فكر الانسان وممارساته وتطلعاته •

حديثا قال تيار ده شاردن انه فهم اخيرا بان

الانسان كالذرة « لا يتقيم » الا في جزئه الذي يشده الى الكون » ، وعندما فهم ذلك شعر بموجة من الظفر تحرر نفسه ، لانه « تجديد عميق حدث فيه بنوع انه صار غير ممكن له ، الان ، ان يكون انسانا الا على مستوى آخر ... لان المادة ، وقد أسفرت عن اضطرابها وتعددها ، كشفت له عن وحدتها المجيدة ، فاصبح الان خواء بينه وبين رفاقه لانها انتزعت قلبها الى الابد من كل ما هو محلي ، وفردي ، وجزئي ، وغدت منذئذ له ، وحدها ، وفي كليتها ، أباه ، وأمه ، وعائلته ، وجنسه ، وحبّه الوحيد والمحرق . ولا احد في العالم ليتمكن من شيء ضد هذا . لقد اشاح بعينيه بحزم عن كل ما هو زائل ، واستسلم في ايمان نائض الى النفحة التي كانت تجتذب الكون » .

نحن لا نطمح ان تكون نظرة انسان وادي الرافدين ، منذ نحو ستة آلاف سنة ، عميقة وكونية كنظرة هذا العالم الفيلسوف ، لكننا ـ نستبق الامر ـ فنقول انها تشبهها الى حد ما ، وفي وجوه عدة ، لانها نظرة منفتحة على الكون ، لا منغلقة ، تشد المرء الى المادة ، من دون ما تجزئة وازدواجية ، وتحلّق به حتى اسمى ما في الكون من وجود .

اصل الانسان والكون

ان النظرة الثنائية التي تجزىء الانسان الى مادة وروح ، ونفس وجسد ، كما نظرها الفكر الاغريقي ، هي غير معروفة تماما في الفكر العراقي الاقدم . اذ يأتي « الانسان » في النصوص العراقية القديمة ، لا سيما السومرية منها ، كوحدة غير متجزئة ، مع قيام تماس كوني صميم ، بحيث يستطاع القول انها نظرة كلية تقرب الى النظرة المعاصرة .

وبخلاف الاساطير البابلية التي تجعل خلق الانسان من دم اله ازعج الالهة الاخرى فانتقمت منه ، نجد الاساطير السومرية وهي الأقدم ، ترجع

اصل الانسان الى الطبيعة ، وبالضبط ، الى الطين . وقد اقتبست التوراة هذه الفكرة فاثبتتها في سفر التكوين (الفصل الثاني) . كما ثمة اشارة في اسطورة سومرية الى ان المرأة اخذت من ضلع الرجل ، وهذه ايضا سترددها التوراة فيما بعد .

اما الغاية من خلق الانسان فالقيام بخدمة الالهة وتحمل مشاق العمل بدلا عنهم للحصول على ما يضمن العيش من ماكل ومشرب وملبس ومسكن .

تقول الاسطورة البابلية :

« حدّث (مَردوخ) (آيا) قائلاً :
اني خالق دما
اني خالق عظما
منهما ساخلق الانسان
ساخلق الانسان ليخدم الالهة

أفك اسر الالهة
أحررها من عبوديتها » .

وتقول التوراة :

« ان الرب الاله
جبل الانسان ترابا من الارض
ونفخ في انفه نسمة حياة
فصار الانسان نفسا حية ...
وأخذ الرب الاله الانسان
وجعله في جنة عدن
ليفلحها ويحرسها » .

وقد جاء الكثير من سفر تثنية الاشتراع من اسفار التوراة مما يؤكد على ان الله خلق الانسان لكي يعبده ويخدمه ويلتزم بوصاياه ويكمل مشيئته .

اما اسطورة الخلق السومرية فتصور لنا (البحر الاول) أو أم جميع الالهة والكائنات ،

تقف امام الاله (انكي) وتقول له :

« انهض يا بني من فراشك ...
واعمل ما هو حكيم
اخلق خدما للالهة ... »

وترى (انكي) يفكر في الامر ، ويخلق للالهة من يقوم بخدمتهم وأودهم ، ثم يخاطب امه (نامو) :

« ان المخلوق الذي لفظت اسمه قد جاء الى الوجود ...
امزجي لب الطين الموجود في اعلى المياه
التي لا يسبر غورها
الصناع المهرة سيجعلون الطين مختمرا
وانت عليك ان تخلقي له الاعضاء ...
اماه ! قدّري مصيره ... كانسان » .

يصوّر لنا الادب السومري ، وهو أقدم

من الرواية البابلية في خلق الانسان بالف عام ، ومن الرواية العبرية باكثر من الفي سنة ، السماء والارض متحدتين في الاصل اتحادا وثيقا متماسكا فان (البحر الاول) او (النهر العظيم) او الاله (نامو) في اصل السماء والارض . والكون هو السماء والارض معا ، بهيئة جبل قاعدته في اعماق الارض (العالم السفلي) ، وراسه في اعالي السماء (الاعلى العظيم) . السماء في حوزة الاله (آن) ، وكل شيء فيها خالد ونقيي ومستنير ، بينما في العالم السفلي تراب وظلام ولا عودة .

هذا ما يعيد الى الاذهان الصور والرموز والاوصاف التي استخدمتها الكتب السماوية في وصف السماوات والارض والعوالم : كما تذكرنا بما تغنى به الشعراء شرقا وغربا في الفردوس والجحيم ، وما الفه المفكرون في المدينة الفاضلة .

نكتفي هنا بوصف سومري لمدينة (دلمون) او البحرين :

« دلمون هي الموطن الطاهر
الارض (دلمون) هي المحل النظيف
الارض(دلمون) هي الارض المشرقة
هو ذلك الذي اضطجع وحده في (دلمون)
المحل الذي اضطجع فيه (انكي) مع زوجته
ان ذلك المحل نظيف ، انه مشرق
في (دلمون) لا ينعق الغراب الاسود
والحدأة لا تصرخ صراخ الحداة
والاسد لا يفتك
والذئب لا يفترس الحمل
والكلب قاتل الجداء غير معروف هناك
وذكر الخنزير الذي يفترس الغلة غير معروف هناك
والطير في الاعالي لا (يفسد) فراخه

• ٩٨ •

والارمد لا يقول انني ارمد

ومن به صداع لا يشكو من الصداع

وامراة (دلون) العجوز لا تشكو من الشيخوخة

ورجل (دلون) الشيخ لا يتبرم من كبر السن ...

والمنشد لا ينتحب

وفي اطراف المدينة لا ينطق بالرثاء » .

يتم انفصال السماء عن الارض وولادة الارض ــ حسب الاساطير السومرية ــ من تزاوج اله السماء (آن) بالهة الارض (انكي) ، وولادة اله الهواء (انليل) . ويلد انليل من اله القمر (ننا) وسائر الكواكب الاخرى ، فيكون الضياء (الاله شمش) . كما انه سيخلق (اليوم الطيب) ، وسياتي بالخصب والرفاهية (الهيكال) الى الارض . ويلد اله الماء اله الزرع ، بينما يرسل

انليل وانكي اله الماشية (لاهار) واله الغلة (اشنان) الى الارض ، فيتحقق الخير وتزدهر الحضارة في الوطن الكبير .

لن نقوم بالعملية التي قام بها الفيلسوف الالماني فويرباخ حين حذف كلمة (الله) التي صادفها في مؤلفات سابقه هيجل ، مستبدلا اياها بـ (الانسان) بكل بساطة ، فكانت بداية المادية الجدلية الملحدة . لكننا سنجري تعديلا بسيطا على نظرية النشوء السومرية ــ البابلية ، فنحذف تعدد الالهة ونسب كل عنصر كوني او مبدأ حضاري الى اله من الالهة ، ونستبدل ذلك بفكرة الخلق وعنصري القوة والمادة الكونيتين ، فنكون حيال فكر عميق وواقعية ، بل اننا سنحصل على أسس علمية جيدة،ويمكننا عندئذ اعتبار حصيلة هذا كله نظرية فلسفية يستطيع الفكر المعاصر ان يقرّها ويستفيد منها .

وتتجلّى انسانيـة النظرة الكونية لحضارة وادي الرافدين من نص قصيدة مطلعها :

« بعد ان ابتعدت السماء عن الارض
بعد ان انفصلت الارض عن السماء
بعد ان عيّن اسم الانسان » ...

ويفهم منها ــ كما من خلق الانسان بلفظ اسمه كما جاء آنفا ــ ان لتسمية الانسان علاقة صميمة بانفصال الارض عن السماء . والانفصال هنا ليس بمعنى الفصل ، بل بمعنى الولادة ، والولادة خلق،والخلق تحديد الشخصية والهوية. فاسم الانسان شخصه وهويته ، وارتباط شخصية الانسان بنشوء الارض يدلل على قيام علاقة كونية بين الانسان والارض والكون ، حتى ليمكننا القول ان الارض ام الانسان ووليدة له ، وان الانسان وليدها وصانعها .

الانسان والعمران

ان دور الانسان بالنسبة للكون ، في أدب وادي الرافدين ، هو تطوير الكون بالعمل . وقد اقتبس كاتب سفر التكوين في التوراة هذه الافكار عندما قال :

« فخلق الله الانسان على صورته
على صورة الله خلقه
ذكرا وانثى خلقهم
وباركهم الله وقال لهم :
انموا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها
وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء
وجميع الحيوان الداب على الارض
وقال الله :

ها قد أعطيتكم كل عشب يبزر بزرا ...
يكون لكم طعاما » .

لن نغالي اذا قلنا ان الفكر العراقي القديم يقيم وزنا للانسان اكبر مما نلقاه في التوراة . ولنأخذ مثلا اسطورة الاخوين (ايميش واينتين) ايضاحا لذلك . من المؤسف انه لم يبق من الثلاثمائة بيت سوى النصف ، ومع ذلك نفهم بان هذين الكائنين ، وهما انسانان ، يحققان الرخاء على وجه الارض ، لاننا نقرأ :

« (اينتين) هو الذي جعل الشاة تلد الحمل والمعزاة تلد الجدي

هو الذي يسب وفرة البقر والعجول
وهو الذي زاد في نتاج السمن واللبن

في السهل ، هو الذي ادخل المرح الى قلب المعزاة الوحشية والخروف والحمار

طيور السماء ، هو الذي مكنها من بناء اعشاشها في الارض الواسعة

أسماك البحر ، هو الذي مكنها من ان تضع بيضها في الاهوار

في بستان النخيل ومزرعة العنب ، هو الذي جعل العسل والشراب وفيرا

والاشجار حيثما غرست ، هو الذي جعلها تحمل الثمر

والغلة ومحاصيل النبات ، هو الذي جعلها تنمو

مثل (اشنان) الهة الغلة ، العذراء الرحيمة ، هو الذي جعلها تنمو

(ايميش) خلق الاشجار والحقول
وهو الذي اكثر من الاصطبلات وزرائب الغنم

في المزارع ، هو الذي أنتج الوفرة ...
الغلة الوفيرة ، هو الذي ملأ بها البيوت
هو الذي وضع في الاهراء اكواما عالية » .

وعلاوة على التأكيد على عمل الانسان وابداعه ، نرى النص يجعل منه شبيها بالآلهة . ولدى تكملتنا للاسطورة يتضح لنا بأن (الاله) هو في الاصل ، كخالق ووهاب للحكمة ، وان الانسان هو باني العالم . اذ بعد حدوث الخصام بين الاخوين ، نسمع شكوى (اينتين) :

« ايها الاب (انليل)
لقد منحتني الحكمة،وجلبت انا الماء والوفرة
انا الذي جعلت المزارع واحدة جنب اخرى
وانا الذي كدست الاهراء ... »

ويمضي الفكر العراقي القديم الى ابعد من ذلك ، فنلقى التأكيد على ان الانسان بعمله يطوّر

العالم والكون ، وينشىء المدن المتحضرة ، ويبعث المتمدن في صفوف الآلهة انفسهم .

لنستمع الى هذا النص :

« لم يعرف (الانوناكي) شيئا من أكل الخبز
ولم يعرفوا شيئا عن ارتداء الثياب
لقد اكلوا النباتات بافواههم كما تفعل الخراف
وشربوا الماء من البرك »

وهذا ما يدفع اله السماء الى خلق اله للماشية وآخر للغلة ، وبحكمة الانسان تكثر المزارع والمواشي ، فيتحقق الخير في الارض .

ومعلوم بان الحضارات اعتمدت الري والزراعة اساسا . وان تحول الانسان القديم الى الزراعة سبق تدجين الحيوان ، ويأتي التصنيع متأخرا . وقد يظن البعض ان اقتصار الجهود على الزراعة واغفال الصناعة من علامات التخلف،

وينسى القائلون ذلك ان ظهور الزراعة الصناعية بحد ذاته يعد اسهاما مهما في تقدم البشرية . لان الانسان القديم ـ كما يقول المؤرخ توينبي والدكتور احمد سوسه ـ حين تمكن من رعاية بذور الطبيعة الوحشية وتأمينها لغرض اعادة زراعتها وتكثيرها ، دفعه ذلك الى اختراع طرق اروائها بنقل المياه اليها عبر القنوات والسدود . وحين كثرت الغلال تعلم فن خزنها ، وأخذ بعد ذلك يتاجر بالفائض منها . وهكذا انتقل الانسان من حياة البداوة الى العمران .

فن الفبن الالحاح على نظام الرقيق لدى قدامى السومريين ، واظهارهم بمظهر البداوة المتخلفة كمجتمع بدائي ، وعدم تقييم ايجابية حياتهم المتطورة في فترة زمنية قديمة جدا . وقد اعطتنا الحفريات الاخيرة نماذج لا بأس بها من ادوات وأوان ومصنوعات تدلل على وجود حرف

كثيرة في العراق القديم . لذا وجب الاعتراف للسومريين بازدهار حضاري عمراني يرقى عمره الى حوالي ستة آلاف عام . وقد كان لهؤلاء الاسلاف وعي بتمدنهم وقيمتهم الحضارية ؛ تشهد بذلك قصيدة في مدح سومر :

« يا سومر ! ايها البلد العظيم
يا اعظم بلد في العالم !
لقد غمرتك الاضواء المستديمة
والناس من مشرق الشمس الى مغربها هم طوع شرائعك المقدسة
ان شرائعك سامية لا يمكن دراكها
وقلبك عميق لا يمكن سبر اغواره
... كالسماء لا يمكن بلوغها !
الملك الذي تلده يزين نفسه بالحلى الدائمة
الرب الذي تلده يضع التاج على الرأس
ربك هو رب معظم ؛ مع (آن) يجلس في

المكان المقدس في السماء

الملك هو الجبل العظيم ، هو الاب (انليل)

وهو مثل ... اب البلدان جميعها

(الانوناكي) الالهة العظام

في وسطك اتخذوا محل سكناهم

في بستانك الكبير ، يأكلون طعامهم

ايه يا دار سومر ! عسى ان تكثر اصطبلاتك

عسى ان تكثر ابقارك

عسى ان تزداد زرائبك

عسى ان تكثر اغنامك بحيث لايمكن ان تعد ولا تحصى ...

عسى ان تقدر (الانوكاكي) المصائر في وسطك ! » .

وهذه قصيدة اخرى في وصف (اور) :

« لقد جاء الى (اور)

(انكي) ملك الماء الذي لا يسبر غوره ، وقدّر مصيرها

ايتها المدينة التي ازداد طعامها

وغسلت بالوفير من المياه ، ووقفت كالثور الراسخ

يا دار الرخاء المقدسة على وجه الارض

ايتها المتفرعة ، انك خضراء كالجبل !

انها الغابة (هاشور) الوارفة الظل ...

هو الذي قدر مصيرك على احسن وجه

(انليل) الجبل العظيم ، هو الذي لفظ اسمك المقدس

ايتها المدينة التي قدّر مصيرها (انكى)

ايتها البقعة المقدسة ، يا اور

لتشمخي برأسك نحو السماء ! » .

وتكشف لنا قصيدة الفأس عن قيمة العمل لدى السومريين ودوره الاساس في العمران

الحضاري • ونحن لو قارنا بين تقييم انسان وادي الرافدين للعمل بتحقير العمل لدى اليونان والرومان ، في عصور متأخرة عن الزمن الذي عاشه السومري والاكدي والبابلي والاشوري والكلداني ، لاتضح لنا عمق تفكير انسان وادي الرافدين وواقعيته الانسانية • عملية بسيطة تكفي بازاحة النقاب عن المضمون الاصلي فنستوعب معاني الرمز وقوته ، حيث الفأس هي أداة العمل ، بل وعمل الانسان الخلاق ذاته : تقول قصيدة (الفأس) :

« الرب الذي يملك حقا ، هو الذي أظهر للعيان

الرب الذي لا تبدّل في احكامه

(انليل) الذي يجلب البذور الى الارض لزراعتها

تولّى برعايته فصل السماء عن الارض

تولى برعايته فصل الارض عن السماء

من أجل ان تنمو الكائنات التي خلقت

في تماسك السماء والارض ...

هو الذي جاء بالفأس الى الوجود ، وخلق اليوم

هو الذي خلق العمل ، وقدّر المصير

ان فأسه من الذهب ورأسها من حجر اللازورد

فأس بيته ... من الفضة والذهب ...

الرب الذي سمّى الفأس وقدر مصيرها ..

وضعها كهدية في أرضهم (الناس)

ورتلوا الصلوات مع (انليل) ...

الفأس والسلة تبني المدن

الدار الثابتة الاركان بنتها الفأس

الدار الثابتة الاركان انشأتها الفأس

الدار الثابتة الاركـان هي التي سـبيت الازدهار

الدار التي ثارت ضد الملك

الدار التي لا تستسلم للملك

الناس تجعلها تستسلم للملك ...

المجد للناس ! » .

ولم تكن الحضارة لتتخذ لها ابعادا وآفاقا رفيعة كالتي عرفتها البشرية منذ القديم وحتـى يومنا ، لولا اختراع السومريين للوسيلة الكبرى التي هي الكتابة ، وذلك في النصف الثاني مـن الالف الرابعة قبل الميلاد .

فانتشرت المدارس بذلك ولعبت دورا مهما في تطوير الثقافة ونشر الوعـي بين الناس . وان طبيعة الخط المسماري وكثرة العلامات المستعملة في كتابة الاقدمين جعلتا مهمة تعلم القراءة والكتابة

شاقة . كما ان الامر كان مقتصرا عادة على فئـة الموسرين .

لكننا لولا التدوين لفقدنا أهـم منجزات الانسان الحضارية ، الفكرية والعلمية . اما وقد اخترع انسان وادي الرافدين الكتابة ، فان التراث الحضاري نقل الينا في مجموعة كبيرة من الوثائق والنصوص ، خطّت جلّها على الحجر والطـين المشوي . ويجدر بنا هنا نقل تصريح العلامـة (ديورانت) : « اننا نستطيع ان نقول ، ان تطور الكتابة هو الذي كان يخلق الحضارة خلقا، لان الكتابة هيأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلهـا كما كانت وسيلة لازدهار العلم وازدهار الادب وانتشـار السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة على تنافرها ، لان استخدام لغة واحدة أخضعهـا جميعا لدولة واحدة ، وبداية ظهور الكتابة هـو الحد الذي يعيّن التاريخ » ، وهذا ما يدفعه الى

القول ايضا : «ان نشأة الكتابةالسومرية وتطورها اعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية » .

وليس لنا ان نفيض هنا في نشأة الكتابة السومرية وتطورها ، ولا في اللغة السومرية واللغة الاكدية (العربية) بفرعيها البابلي والاشوري ، ولا في أدب وادي الرافدين باساليبه وتشعباته ، انما يهمنا التصريح بان أنسان وادي الرافدين كان في الاساس من اختراع اداة الحضارة ، كتابة وعملا ، وفي الاساس من اختراع الابجدية والعلوم ، فكان بذلك أكبر مساهم في عملية العمران البشري .

الانسان والارض

الانسان والطبيعة متلازمان ، في أدب وادي الرافدين ، تلازما وجوديا واقعيا ، في السراء والضراء .

ولعل أكبر مثال على ذلك هو ما جاء في قصة الطوفان السومرية ــ البابلية .

والطوفان والفيضانات من الظواهر الطبيعية المألوفة في وادي الرافدين ، ولا سيما في القسم الجنوبي من البلاد . فمنذ قديم الزمان تغمر مياه دجلة والفرات وروافدهما مساحات واسعة من الاراضي كل عام ، لا سيما في الربيع . « وهذه الظاهرة الطبيعية المروعة ــ كما يقول الدكتور

فاضل عبدالواحد علي ــ التي لم يستطع الانسان في وادي الرافدين من السيطرة عليها بوسائله المتوفرة انذاك ، كانت في نظر الفرد ، مثل غيرها من الظواهر الطبيعية الاخرى ، سرا من اسرار الالهة وسلاحا من اسلحتها . ولهذا فقد احتل الطوفان حيزا مهما في معتقدات سكان وادي الرافدين وتآليفهم . ولنا ان نفترض ان واحدا من تلك الفيضانات العظيمة في بلاد سومر ، التي ربما حدثت في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، بقي صداه في ذاكرة الاجيال لشدة هوله وبسبب ما الحق بالناس والبلاد من دمار ، بحيث اتخذ منه المؤرخون القدامى انفسهم نقطة « لتاريخ » الحوادث . فنحن نقرأ على سبيل المثال في احد النصوص المسمارية عن كلكامش « انه جاء باخبار تعود الى ما قبل الطوفان » ، وعن آشور بانيبال قوله : « وأمعنت النظر في كتابة على حجر تعود

الى ما قبل الطوفان » . وهو هذا ــ حسب ظننا ــ ما تناقلته التوراة والمؤرخون القدامى فيما بعد.

لنحاول ان نقرّب مقاطع النص الذي في قصة الطوفان لايضاح الفكرة :

« ولم تمض بعد الف وستا سنة
حتى توسعت البلاد
واصبحت البلاد تخور كالثور
فانزعج الاله من ضجيجهم
اجل ، لقد سمع انليل صخبهم
فقال مخاطبا الالهة العظام :
لقد اصبح صخب البشر شديدا عليّ
وقد حرمني ضجيجهم من النوم
فلتقطع المؤن عن الناس
لتكن ندرة في الزرع تجوعهم
وليحبس الاله ادد المطر ...

وفي الاسفل ينبغي الا يصعد الفيضان من « العق »

ولتعصف الرياح لتلفح وجه الارض ...

وينبغي الا يعمّ الفرح بينهم »

ان غضب الالهة يجعل رحم الارض لا يحمل والحقول السوداء بيضاء ، والسهل الواسع يختنق بالملح ، فيدب الجوع في صفوف الناس ، ويعانون من الحكة ، وتتغير ملامحهم ، وتغطي وجوههم غشاوة كالنبت المصفرّ ، ويسيرون محدودبين في الشوارع ، وتصبح اكتافهم الواسعة منكمشة ، وسيقانهم الطويلة قصيرة ، ويبدون وكانهم احياء على حافة الموت ، اما رضى الالهة فيعمل على ايقاف الابادة الشاملة ، ويسمح للناس بالعمران ، وذلك بفضل العمل . جاء في النص :

« من اجل الالهة (ننتو) فاني اريد ايقاف ابادة مخلوقاتي

اريد ان أرى الناس وقد رجعوا الى مواطن سكناهم

ليشيدوا مدنهم ولتكون ظلالها وارفة

فعسى ان يوضع طابوق كل المدن في اماكن مقدسة ...

لقد أتممت القوانين المقدسة والنواميس المعظمة

وسوف تسقى الارض ،

فعسى ان يكون هناك سلام ....

اريد ان ارى جهودهم (الناس) المضنية ..

لقد اعطى (الاله) الاسماء الى هذه المدن وعيّن عواصمها

انه لم يوقف الفيضان السنوي ،

ولكنه حفر الارض وجلب الماء في الترع

واقام كرى القنوات وجداول الري » .

وتفيدنا قصة الطوفان بشيء بالغ الاهمية ، وهو ان الالهة كانوا مثل البشر • فالالهة « تنوء بمشقة العمل وتعاني من التعب » • كما تفيدنا بان بطل الطوفان (زيوسدرا ، او اتراخاسيس ، أو اوتو ــ نبشتم) هو انسان ، رفعته الالهة الى الحياة الازلية مثلها ، وهي دلالة واضحة على اندماج عالم الالهة بعالم البشر • ويأتي هذا الاندماج في معظم النصوص العراقية القديمة •

وعلاقة الحيوان ايضا بالبشر وثيقة • فنحن نقرأ ، في ملحمة كلكامش الشهيرة ، بان الدب والضبع والنمر والفهد والايل والسبع والعجول والضباء وكل حيوان البرية ينـدب (انكيدو) ساعة وفاته • ويأتي في المصادر الادبية القديمة بان الحيوانات هي مخلوقة ، لكنها « تنبعث من الارض » •

وقد أوردنا سابقا ، في قصيدة تصف

(دلون) ، تعاطف الحيوان والنبات والمياه مع الانسان وانتاجه ، بحيث تغدو المدن ذات العمران البشري جنات حقيقية •

ولنا في اسطورة (انليل واينتين) وولادة (نا) ما يؤكد اهمية انسجام المدينة بنهرها ومرفأها وبئرها مع الانسان ، شابا كان ام فتاة أم عجوزا ، كما ثمة اكثر من ذكر لوظيفة المياه في عملية التطهير والنقاء • فاننا نقرأ مثلا في قصيدة تصف مدينة (نفر) :

« انظر تماسك السماء والارض ، المدينة
انظر « الجدار الجيد » ، المدينة
انظر (ايدسالا) ، نهرها الصافي
انظر (كراكرونا) مرفأها الذي ترسو عليه السفن
انظر (بولال) بئر مائها العذب

انظر (اد نبردو) قناتها النقية
انظر (انليل) رجلها الشاب
انظر (ننليل) عذراءها الفتية
انظر (ننبار شكونو) امرأتها العجوز ...
في تلك الايام ، وجهت الام النصح الى عذرائها التي ولدتها
(ننبار شكونو) وجهت النصح الى (ننليل) :
في النهر الصافي ، يا عذرائي
في النهر الصافي اغتسلي يا (ننليل)
تمشي على ضفاف نهر (ادنبردو) ... »

الانسان والمجتمع

انتظمت الحياة في بداية الامر في القسم الجنوبي من واد يالرافدين . وهنالك انشأ السومريون اقدم حضارات العالم طرا ، وذلك منذ الالف الرابع قبل الميلاد .

ولعل اصل السومريين من الجبال ؛ لان لباسهم كان الصوف وصناعتهم النحاس . ولما تكاثر عددهم في وادي الرافدين ، اندفعوا الى شق الجداول والترع ونقل المياه الى الاراضي الزراعية لاروائها سيحا ، واستخدموا وسائل خاصة لرفع المياه الى الاراضي المرتفعة ، فاخترعوا الدولاب لهذا الغرض ، وتتبعوا مواسم الفيضانات والاحوال الجوية وحركة الافلاك لتعيين مواسم

الزروع الشتوية والصيفية ، وقادهم ذلك الى اتقان عمليات المسح لتحديد الاراضي ، فانشأوا قواعد ثابتة للمقاييس والمكاييل ، وحملتهم وفرة الانتاج على المتاجرة مع المناطق القريبة والبعيدة.

اما أشهر المدن السومرية فهي : اور ، اوروك، اوما ، لكش ، لارسا ، ماري . وقد احتفظت كل مملكة من ممالكهم ، في بادىء الامر ، باستقلالها في ظل ملك ــ كاهن (باتيزي) ، حتى قيّض للملك (لوغال) ان يوحّد المدن او الممالك الصغيرة في مملكة كبيرة واحدة عاصمتها (اوروك). واستطاع هذا الملك ان يفاخر بانه يبسط نفوذه من « البحر الادنى » او الخليج العربي حتى « البحر الاعلى » او البحر الابيض المتوسط .

ثم تعاقبت موجات الهجرات من شبه جزيرة العرب الى بلاد ما بين النهرين ، واشتبك الوافدون بالمستوطنين ، فسقطت بلاد سومر على يد الاكديين

عام ٢٧٢٥ ق . م وشاد بطلهم سرجون عاصمة جديدة سماها (اكد) ، وأخضع شرقي الجزيرة العربية وبلاد عيلام حتى بلغ الغرب وغسل سلاحه بمياه البحر المتوسط .

تلاهم البابليون الذين اتخذوا من بابل (بيت ايل ، او الاله) عاصمة لهم . وكان لحمورابي العظيم (١٧١٠ ــ ١٦٧٠ ق . م) ان يوطد حكمهم ، فأرسى امبراطوريته على قواعد صلبة هي القوانين والتشريعات التي جاءت اكمل ما سبقه اليها الاخرون ، كما انه اخضع بلاد آشور .

وكان الآشوريون يهيئون انفسهم للاستيلاء على البلاد ، حتى أتيح لهم ذلك بفضل سرجون الاول سنة ١٧٧٥ ق . م ، وغدت نينوى عاصمة لأمبراطورية هي من اعظم امبراطوريات العالم القديم . وبنى الاشوريون عواصم اخرى ثلاثا : آشور ، نمرود ، خورسباد .

ولما تكاثر الكلدانيون في بابل تمكنوا من السيطرة على زمام امور البلاد واستعادة مجد بابل، ولا سيما في عهد نبوخذنصر محرر فلسطين .

ولم تعمر دولة الكلدانيين طويلا ، لان كورش الفارسي ضمها سنة ٥٣٩ ق . م الى دولته ، فنقدت بلاد وادي الرافدين بذلك استقلالها حتى التحرير العربي الاسلامي .

كان السومريون من المزارعين ، ودفعتهم الزراعة الى الاستيطان وتشييد المدن العديدة ، فآلت بهم الحال الى تحضر رفيع . وقد فطنوا هم انفسهم لذلك فاعتبروا الاله (انكى) اله الماء واله الحضارة معا . وانصرف الموسرون منهم الى التجارة ، فكان لهم مع الشعوب والبلدان الاخرى تبادل حضاري .

وبلغ المجتمع العراقي القديم من العمران

الاجتماعي والادبي والفني شأوا عاليا تقف اليوم مندهشين بازاء عظمته وشموخه ، وكل ذلك الرقي والابداع .

نظرة متفحصة الى زقورة اور ، واخرى الى برج بابل ، تكشفان لنا عن عبقرية فذة تحلى بها انسان وادي الرافدين قديما . فقد كان للزقورات وظائف ثلاث : دينية وعسكرية وفنية ومعنى الزقورة تل السماء او جبل الاله ، وهي عادة برج مدرج يقام في اعلاه قدس الاقداس ، لذا فان وظيفته الاولى دينية . كما انه برج لرصد تحركات الجيوش والقوافل ، فهي وظيفة عسكرية . وكان المعماريون والفنانون يغتنمون الفرصة لكي يظهروا قابلياتهم الهندسية والفنية ، يزيدهم في ذلك رغبة الملوك والكهنة في اخراج الزقورات بشكل جميل مهيب ، فيتفنن المعماريون في تشييدها باشكال شتى ، فزقورة يصعد اليها بواسطة درج ، كما هي

الحال في زقورة اور ، واخرى عن طريق منحدرات خارجية ، كما في برج بابل ، وغيرها عن طريق النوعين ، كما في زقورة اريدو . وكانت الزقورة مكونة من ثلاث طبقات او اكثر حتى السبع ، وكل طبقة ملونة بلون . اما القاعدة فمربعة او مستطيلة او مستديرة . وهي مشيدة عادة باللبن واحيانا بالحجر .

نقرأ في اللوحة السادسة من ملحمة الخليقة (في العلى عندما) :

« انت ايها الاله مردوخ حررتنا
كيف نعبر عن شكرنا لك ؟
تعالوا نبن له مسكنا
تعالوا نبن له هيكلا .
فرح مردوخ ، وأشرق وجهه .
فيالسنة الاولى صنعوا لبنا

وفي السنة الثانية بنوا هيكلا
على جسد (ابسو) اقاموا هيكلا
ليكن اسمها (بابل) ، قال مردوخ
لتكن مسكنا للثالوث :
مردوخ ، وانليل ، وآيا » .

ونحن لو زرنا المتاحف التي تحتفظ باثار سومرية واكدية وبابلية واشورية وكلدانية لاستحوذ علينا العجب حيال تحف نادرة من الزخارف والاواني والاختام والتماثيل الحجرية والمعدنية والعاجية والخزفية ، تشهد كلها بنبوغ انسان وادي الرافدين ...

لذا حق لكلكامش العظيم أن يفاخر بمدينته (أوروك) فيقول للملاح (اور ـ شنابي) :

« اعمل يا (اور ـ شنابي) وتمشّى فوق أسوار (اوروك)

وافحص قواعد أسوارها ، وانظر الى آجر بنائها

وتيقن أليس من الآجر المفخور ؟

وهلاّ وضع الحكماء السبعة أسسها ؟

ان (شارا) واحدا خصص للسكن

وشارا واحدا لبساتين النخل

وشارا واحدا لسهل الري ، بالاضافة الى حارة معبد عشتار

فتتضمن (اوروك) ثلاثة شارات والحارة » .

بيد ان توسع الفتوحات من جهة ، وانتشار الحياة المترفة من الجهة الاخرى ، ما نبثا ان أولدا مشاكل اجتماعية جديدة ، لم يكن يعرفها العراقيون الاوائل ، على ما نرجح ، فظهرت لديهم تيجتها فوارق طبقية ما عتم ان ألمحت اليها التشريعات القديمة وكرستها شريعة حمورابي . ووفقا لهذه

التغيرات الطارئة تشكلت بنية اجتماعية سادت المجتمع العراقي القديم ردحا من الزمن ، وقوامها:

الملك ، وهو رأس المجتمع وصاحب السلطة، اذ يمثل الاله على الارض ، دون أن يتمتع بصفة الالوهية كما كان لفرعون مصر . الالهة هي التي تختار الملوك بعد استشارة الكهنة ، وهذه الاستشارة تفسح المجال للخروج على مبدأ الوراثة فقد يتحزب الكهنة لشخص دون آخر ، ويدعون انهم انما يستجيبون بذلك لمشيئة الالهة .

يلي ذلك طبقة النبلاء (اميلو) ، وتضم : الكهنة والكتبة والموظفين الرسميين . وقد أعتبرهم قانون حمورابي العنصر الرئيس . تليهم طبقة المساكين (مشكينو) ، وهم العائشون في فاقة ، الامر الذي يضطرهم احيانا الى بيع انفسهم ، فينحدرون هكذا الى الطبقة الثالثة ، وهي طبقة العبيد .

والعبيد نتيجة طبيعية للحروب والسبي ؛ فهي لم تكن قائمة اذا منذ القديم البعيد . وبطبقة العبيد تناط عادة الاعمال الشاقة والمهن الوضيعة. وقد تكاثر عدد العبيد في الفترة الآشورية اثر الحملات والغزوات العديدة والموفقة .

يبدو ، مما سلف ومما سيأتي ، دور الانسان في المجتمع العراقي القديم ، ويحق لنا ان نعلن بانه دور عمراني بكل ما في هذه الكلمة من معان وأبعاد .

اقدم الشرائع

« يا سومر ! ايها البلد العظيم !
يا اعظم بلد في العالم !
لقد غمرتك الاضواء المستديمة
والناس من مشرق الشمس الى مغربها هم طوع شرائعك المقدسة
ان شرائعك سامية لا يمكن ادراكها ! »

هذا ما نقرأه في قصيدة سومرية تتحدث عن تنظيم الارض ونشوء الثقافة فيها . وفي اللوحة الرابعة من ملحمة الخليقة (في العلى عندما) ـ التي ترجع الى الالف الثاني قبل الميلاد ، فهي اكدية ـ بابلية ـ نقرأ بان الاله مردوخ هو المؤمر

، ولا مرد لاحكامه . وهي فكرة كان يراد بها اعطاء قيمة عظمى للشرائع والقوانين ، اذ ناقصة هي وضعيفة الشرائع التي تصدر عن البشر ، ورشيدة وخالدة الشرائع والقوانين السماوية . ولا نستغربن من هذا ، فلا يزال كثير من الناس ، حتى يومنا هذا ، يتصورون ذلك ، بل ويؤمنون به أيما ايمان .

اما الواقع ، فالحكماء والفقهاء الذين يسنون الشرائع والقوانين والانظمة العادلة ، مستندين بذلك الى ما يسمى بـ (الشريعة الطبيعية) او مبادىء الخلق السليم النابعة عن ضمير قويم ، فيجسدون المشيئة الربانية في تشريعاتهم . ويقوم الملوك والحكام باصدار هذه القوانين بلوائح ينسبونها الى الالهة مباشرة ، لكي تكتسب قوة وثبوتا .

يجمع مؤرخو الحضارات على ان ظهور

القوانين والانظمة في حضارة ما هو من أوثق المعايير للحكم على مدى تقدم تلك الحضارة في سلم التطور الحضاري والتقدم العمراني . « فاذا كان الامر كذلك ـ يقول الدكتور طه باقر في تقديمه لكتاب الدكتور عامر سليمان (القانون في العراق القديم) ـ فما لا مراء فيه ان يكون تدوين القوانين والانظمة القانونية والاجتماعية في تثبيت الاعراف الاجتماعية التي تسير بموجبها المجتمعات معيارا أوثق في تقييم مستوى تلك الحضارة العمراني ، ودالة ومؤشرا حضاريا على توطد التنظيم الاجتماعي وتغلغل روح النظام والقانون والتماسك الاجتماعي . وفي هذا الضوء ينبغي للباحث ان ينظر الى ما خلفته حضارة وادي الرافدين من شرائع وقوانين معروفة يعدها مؤرخو الحضارة اولى واقدم محاولات الانسان في مسيرته التاريخية الطويلة عبر العصور لتنظيم اولى

مجتمعات متحضرة قبل نيف واربعة آلاف عام .
واذا ما وجدنا اختلافا بين الباحثين حول أي من الحضارات القديمة متى ظهرت فيها قبل غيرها المقومات والاسس الحضارية التي يقوم عليها كيان المجتمعات المتحضرة ، فانهم يجمعون على ان هناك جملة عناصر حضارية اساسية ظهرت في حضارة وادي الرافدين قبل جميع الحضارات القديمة » .

والشرائع العراقية القديمة المعروفة تسبق أقدم ما هو معروف من شرائع وقوانين في سائر المجتمعات والحضارات الاخرى بعشرات القرون. فلم تصلنا شريعة واحدة كاملة من وادي النيل تسبق القرن الخامس قبل الميلاد ، اما القانون اليوناني فلا يتعدى تدوينه القرن السادس قبل الميلاد ، والقانون الروماني القديم ، او الالواح الاثنا عشر ، يرجع تاريخها الى القرن الخامس قبل

الميلاد، اما مجموعة القوانين الرومانية الجستينيانية فتعود الى القرن السادس الميلادي .

ليس لنا قوانين مدونة معروفة من الفترة السومرية القديمة جدا ، الا انه يحق لنا استنتاج وجود انظمة وشرائع منذ عصور فجر السلالات ، نظرا للنظام الذي كان سائدا في المجتمع السومري القديم . ولم يقم حاكم لكش (أوروكاجينا) الا باصلاحات قانونية تفترض حتما وجود تشريعات أقدم منها .

واصلاحات (اوروكاجينا) التي تعود الى سنة ٢٣٥٥ ق . م ، هي أقدم الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية المعروفة في تاريخ البشرية. وقد تم العثور على ثلاث نسخ من نصوصها المسمارية يعود تاريخها الى زمن واضعها او بعد ذلك بقليل ، كما عثر على نص رابع يحمل تقييما لهذه الاصلاحات .

انا من متابعة تاريخ لكش في اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، نكتشف اسباب هذه الاصلاحات ، لان دولة لكش كانت تتمتع يومذاك بازدهار حضاري كبير وقوة عسكرية جعلتها تدخل في معارك عديدة مع مجاوراتها من دويلات ، ونتيجة لتحقيقها انتصارات متتالية ، تدفقت على البلاد الغنائم والاسلاب ، وكثرت مواردها الاقتصادية باتساع اراضيها الزراعية وطاقاتها البشرية ، فعم الرخاء وارتفع مستوى المعيشة فيها . وكثيرا ما يسبب ذلك ضعفا بسبب الركود الى الكسل والترف ، فيلجأ المتسلطون في المجتمع الى وسائل لابتزاز اموال الناس بغية الحفاظ على مستواهم المعاشي المرتفع ، فيدب الفساد وتعم الفوضى لذا نرى اوروكاجينا يقوم باصلاحاته لانه « يخاف الالهة ويحترم املاكها » .

وبعد ان تصف النصوص المشاريع العمرانية

التي قام بها اوروكاجينا ، تقدم لنا لوحة مؤلمة عن الاوضاع الفاسدة التي كانت تسود دولة لكش من اقطاع جشع واعتداءات يرتكبها الاقوياء ضد الضعفاء ، فيندد بها ويضع الالهة حكاما وحراسا على الناس والاملاك ، ويخفض الضرائب ، ويخصص جرايات دائمة لاصناف من الكهنة والموظفين والحرفيين والعميان . وينص حاكم لكش على عقوبات ضد بعض الجرائم المقترفة . فاصلاحاته وثيقة تنادي صراحة باهمية حقوق الانسان ووجوب احترامها ، وتؤكد على حرية المرء ، وترفض ما يتعارض واياها . وجميل ان نعرف بان كلمة الحرية (آمارجي) ، أمنية كل الشعوب في كل العصور ، قد ظهرت في تاريخ البشرية لاول مرة في هذه الوثيقة .

وفي عام ١٩٥٢ استطاع عالم المساريات كريمر التعرف على لوح مساري محفوظ في

متحف اسطنبول يحتوي على اجزاء من الشريعة ، اصدرها الملك السومري (اورنمو) ، مؤسس سلالة اور الثالثة (٢١١١ ــ ٢٠٠٣ ق ٠ م) ٠ واستطاع هو وغيره من العلماء من تجميع بقايا أقدم شريعة معروفة لدى الانسان ٠ هي (شريعة اور نمو) ٠

تتكون هذه الشريعة ، كما نعرفها حاليا ، من احدى وثلاثين مادة ، تدور حول الزواج والطلاق والقتل والعبيد والقسم والزراعة ٠ وجاء في مقدمتها بان الملك (اورنمو) اهتم بنظام المقاييس والمكاييل والاوزان ٠

ثم كشفت الحفريات عن شريعة (لبت عشتار) ، وهو خامس ملوك سلالة ايسن ، وقد حكم من سنة ١٩٣٤ وحتى ١٩٢٤ ق ٠ م ٠

تتكون هذه الشريعة من مقدمة وخاتمة وسبع وثلاثين مادة ٠ جاء في المقدمة ان الملك هو (الراعي

الحكيم ، المنادى من قبل الاله ٠٠٠ لامارة البلاد وتحقيق العدالة فيها ، ولمعاقبة الظالم ، ولرد العداوة وكل عصيان مسلّح ، ولجلب الرفاهية للسومريين والاكديين) ٠

وتتناول مواد الشريعة الايجار والاستئجار ، سواء للقوارب او للبساتين والاراضي ، وتردع عن استملاك العبيد والاموال بطرق غير شرعية ، كما فيها عن التوقيف ، وضريبة العقار ، والارث ، والمهر ، والاعالة ، والخطوبة والزواج ، والاذى اللاحق للفرد بسبب ما يملكه من حيوانات ٠ ويختم الملك (لبت عشتار) شريعته بقوله : « استنادا الى كلمة الاله (اوتو) الصادقة ، تسببت في ان تتمسك بلاد سومر واكد بالعدالة الحقة ٠ واستنادا الى امر الاله (انليل) ، انا (لبت عشتار) ابن الاله انليل قد قضيت على البغضاء والعنف ٠٠ وعملت على ابراز العدالة والصدق ، وجلبت الخير

للسومرين والاكديين ... ونشرت الرفاه في بلاد سومر واكد » .

وفي عام ١٩٤٥ اعطت التنقيبات التي قامت بها مديرية الاثار العامة العراقية في تل حرمل نبأ اكتشاف لوحين دون عليهما قانون (ايشنونا) ، وهما مكتوبان باللغة البابلية . يسبق هذا القانون شريعة حمورابي بنصف قرن ونيف . ويتكون من احدى وستين مادة تتناول تسعيرة المواد الغذائية، واجرة وسائط النقل من عربات وقوارب وحمير ، واجرة الحصادين والاجراء ، كما تبحث في السرقة والديون ، والمتاجرة ، والبيع والشراء ، والمهر والزواج والطلاق ، والرضاعة وتربية الاولاد ، والاسرى . والفدية والعبيد ، والحاق الضرر بالاخرين سواء من قبل اشخاص او حيوانات او سقوط ابنية ، والحراسة .

وثمة تشريعات اخرى وقوانين نلقى تنويها

عنها هنا وهناك ، غير ان التنقيبات لم تكشف لنا بعد بما فيه الكفاية عن نصوصها .

اما الشريعة التي نالت شهرة واسعة جدا فهي لا شك شريعة حمورابي . وحمورابي هو مؤسس سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ — ١٥٩٤ ق . م) ، وموحد البلاد بعد أن كانت قد تجزأت الى دويلات مدن . وفي السنة الثلاثين او الاربعين من حكمه (بحدود ١٦٨٠ — ١٦٧٠ ق . م)، اصدر حمورابي شريعته ، وثبتها على الحجر ورقم الطين ، وأمر بتوزيعها على المدن البابلية كلها لكي يسير الحكام والقضاة بموجبها وتتحقق بذلك العدالة بين الناس .

وشريعة حمورابي مدونة — كما يقول الدكتور فوزي رشيد في كتابه (الشرائع العراقية القديمة) — على مسلة كبيرة من حجر الدايوريت الاسود ، طولها ٢٥٥ سم وقطرها ٦٠ سم ، وهي

اسطوانية الشكل ، عثر عليها في مدينة السوس عاصمة عيلام (الاحواز) أثناء حفريات البعثة الاثارية الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، وهي محفوظة اليوم في متحف اللوفر بباريس .

رتبت موادها في اربعة واربعين حقلا ، مكتوبة بلغة بابلية وبخط مساري . ونحت في القسم الاعلى منها شكل بارز يمثل الاله (شمش) وهو جالس على عرشه ، يقوم بتسليم الملك حمورابي ادوات القياس ليتسنى له اعمار البلاد وتثبيت ملكية الناس بقياسات دقيقة .

ويستهل حمورابي شريعته بمقدمة ، على غرار شريعتي اورنمو ولبت عشتار ، لكنها مفصلة مسهبة ، يذكر فيها الملك منجزاته ومكاسبه في جميع البلدان الخاضعة لسلطانه من الخليج العربي وحتى اقصى الحدود الشمالية . وبعد ان يحمد الالهة يؤكد على شرعية قوانينه وفوائدها في توطيد

العدالة والحق ، ووجوب اتخاذها دليلا للحكام والقضاة .

جاء في المقدمة :

« عندما قضى الاله (آنو) المتسامي ، ملك (الانوناكي)

والاله (انليل) سيد السماء والارض

مقرر مصائر البلاد

قضيا لمردوخ الابن البكر للاله (انكي)

ان يتمتع بقدسية الاله انليل على كل البشر

وجعلاه عظيما بين الايكيكي

وسميا بابل باسمها العظيم

وجعلاها المستقيمة في العالم

وثبتا له في وسطها ملكية ابدية

أسسها ثابتة كالسماء والارض

انذاك أسماني (آنو وانليل) باسمي

(حمورابي) الامير التقي الذي يخشى آلهته

لأوطد العدل في البلاد
لاقضي على الخبيث والشر
لكي لا يستعبد القوي الضعيف
ولكي يعلو العدل كالشمس فوق ذوي الرؤوس السود
ولكي ينير البلاد
من اجل خير البشر
انا حمورابي الراعي المسمى من قبل (انليل)
الذي يجعل الخير فيضا وكثرة ... »

ثم تعدد المقدمة انجازات حمورابي « المصلح الورع » و « الملك القدير » و « البطل » الذي يسود (نيبور) ويقدم كل شيء ويحقق رغبة الجميع ، مجدد الهياكل ومطهر العبادة ومثبت أسس المدن وموسع الاراضي المزروعة ، انه « الحكيم ، الاداري ، الذي بحوزته ينبوع الحكمة ، راعي الرعية ، الملك القوي ، شمس

مدينة بابل ، الذي يرسل النور الى بلاد سومر واكد ، محبوب عشتار ... »

ومواد شريعة حمورابي معروضة في ثلاثة عشر قسما . يحتوي القسم الاول (المواد ١ ــ ٥) على مواد تتعلق بالقضاء والشهود . والقسم الثاني (٦ ــ ٢٥) تتعلق مواده بالسرقة والنهب . والثالث (٢٦ ــ ٤١) بشؤون الجيش . والرابع (٤٢ ــ ٦٦) بشؤون الحقل والبيت والبساتين . والخامس (٦٧ ــ ١٠٧) بالقروض والفوائد والتعامل مع التجار . والسادس (١٠٨ ــ ١١١) بساقية الخمر . والسابع (١١٢ــ١٢٦) بالائتمان والديون . والثامن (١٢٧ ــ ١٩٤) بالشؤون العائلية أي الزواج والطلاق والارث والتبني . والتاسع(١٩٥ــ٢١٤)بعقوبات القصاص والغرامات المفروضة على الافراد التي يحدثها الافراد بعضهم لبعض عند الشجار . والعاشر (٢١٥ ــ ٢٢٧)

بالطب البشري والبيطري والواسم • والحادي عشر (٢٢٨ ــ ٢٤٠) بالاسفار وتعيين أجور بناء البيوت والقوارب والصناع والرعاة والعقوبات المفروضة على من يخل بالتزاماته • والثاني عشر (٢٤١ ــ ٢٧٧) بأجور الحيوانات والاشخاص • والاخير (٢٧٨ ــ ٢٨٢) بشراء العبيد وعلاقتهم باسيادهم •

فهي شريعة متكاملة حق للعراق القديم ان يفاخر بها على أنها أكمل واعرق التشريعات التي عرفتها البشرية • وقد ختمت بما يلي : « هذه هي قوانين العدالة التي ثبتها حمورابي ، الملك الكفء ، وبها مكن البلاد ان تنال القيادة الرشيدة والحكومة الحسنة ••• حمورابي السيد ، الذي هو اشبه بالاب الحقيقي للشعب » •

وثمة مراسيم ملكية فيها من القوانين والاوامر المفيدة والمنظمة لشؤون المجتمع ، كما

ثمة رسائل رسمية فيها الكثير من المظاهر الحضارية ولا سيما دراسة النظم وكيفية تطبيق القواعد القانونية • ونلقى بين النصوص العراقية القديمة أيضا أحكاما وسوابق قضائية كانت تحفظ عادة في المحاكم لكي يستفيد منها الحكام • كما هنالك نصوص احلاف ومعاهدات كان يبرمها الملوك والولاة لتنظيم علاقة الدولة بغيرها من الدول • وهنالك ما يسمى بـ (المعاجم اللغوية) او تدوين بدايات النصوص القانونية والقضائية في حقلين متقابلين ، بالسومرية والاكدية ، مع شرح لمعاني المفردات والمصطلحات • ولنا نصوص عقود ومعاملات شتى تشكل كلها وثائق مهمة • هذه وغيرها تكشف لنا ايضا عن الفكر العراقي القديم اجتماعيا وحضاريا ، ولولا ضيق المجال لتناولنا شيئا منها بالتفصيل •

المـرأة

المرأة قلب العائلة ، والعائلة ركيزة المجتمع البشري • لذا تناول هنا بشيء من التفصيل ما يخص المرأة في المجتمع العراقي القديم • ونود التنويه فورا بان اعتمادنا النصوص القانونية وحدها يقدم لنا وجها قاتما عن المرأة ، كما عن المجتمع ككل ، لان القوانين انما تأتي لتنظيم ما هو بحاجة الى تنظيم ، واصلاح ما فسد من أوضاع • فلا بد من اعتماد نصوص اخرى ، ولا سيما الادبية منها •

ان « مركز المرأة في حضارة وادي الرافدين ـ كما تلخص الامر ثلماسيان عقراوي ـ لم يكن في يوم ما كمركز الرجل الذي كان يحتل

دائما مركز السيادة في المجتمع • وعلى الرغم من هذا فان وضع المرأة في وادي الرافدين كان احسن نسبيا بكثير من وضع نظيرتها في بعض البلدان القديمة الاخرى ، مثل اليونان والرومان • اذ كانت المرأة العراقية تتمتع باستقلال ذاتي يقره القانون والعرف • ولم يقتصر هذا الاستقلال على طبقة معينة من النسوة ، بل كانت تتمتع به المرأة الحرة على مختلف المستويات الاجتماعية » •

تقدم لنا النصوص القانونية المتوفرة صبغة أبوية للمجتمع العراقي القديم ، حيث الرجل ـ الاب هو الرئيس الاعلى في العائلة • غير ان قاعدة الزواج بواحدة ، كزوجة شرعية ، اعطى للمرأة ـ الزوجة ـ الام حقوق التملك والبيع والشراء ، دونما تاثير كبير من قبل الاب او الزوج في معاملاتها الخاصة بحيث يمكننا القول ان مكانة المرأة في بداية العهد السومري كانت افضل مما آلت اليه

في العهود التي تلتها ، فهي ربة الحياة ، وأم العائلة الكبيرة ، وشيخة القبيلة ، والكاهنة ، ومؤسسة السلالة .

وكانت العائلة السومرية والبابلية والاشورية مؤلفة من الزوج والزوجة وأبنائهم الطبيعيين والمتبنين ، والنسل دعامة الزواج الناجح ، وكثرة الاطفال مصدر قوة للعائلة . لذا فمن التمنيات السومرية : « عسى ان يمتلىء بيتك بالتوائم ! ». ولم يكن المجتمع العراقي القديم ليفرق اساسا بين الذكور والاناث ، لا سيما الصغار منهم . ويفضل العراقيون القدامى الزواج المبكر ، اما كثرة النسل فعون للاهل في الزراعة والتجارة والحروب والشيخوخة .

والى جانب اعمالها المنزلية ، كانت المرأة تمارس عددا من المهن ، كالغزل والنسيج وطحن الحبوب وتربية الحيوانات ومساعدة الرجل في

الحقل . وكانت المرأة تتقاضى عن ذلك ما يتقاضاه الرجل من اجر .

وبينما لا يمكننا اعتماد الحال التي كانت عليها الملكات والاميرات لتقديم صورة صحيحة عن وضع المرأة في العراق القديم ، لا يسعنا كذلك ان نحط من قدرها كثيرا بتوقفنا عند معاشرة الرجال للاماء او تركيزنا على تقديم البنات الى المعابد كنذور للالهة .

وما خلا حق التملك والتصرف بممتلكاتها بكامل الحرية ، كان للمرأة ان ترفض الرجل الذي يتقدم للزواج منها . ولنا نصوص قديمة تشهد بممارسة المرأة السومرية والاكدية للكتابة واستخدامها اختاما خاصة بها ، وقيامها باعمال تجارية حرة ، وظهورها في المحاكم .

اما أهم مهنة مارستها المرأة العراقية في تلك العهود السحيقة فهي مهنة الكهنوت . وأظنها

امتدادا لمكانة المرأة في العهود التي سبقت تسجيل الانطباعات الاولى عن منزلتها ووظيفتها في المجتمع. فالمرأة ــ الام مصدر الحياة ، وأصل الكون يرجع الى الهة ــ ام . ثم تطور الامر الى الهات هن زوجات آلهة ، حتى تم تجسيد ذلك في الالهة انانا ــ عشتار . وكنتيجة طبيعية لذلك شاعت عادة تقديم البنات لخدمة الآلهة ككاهنات وعذارى ، لا « للبغاء المقدس » كما ظن بعضهم ، وانما ككرسات للخدمة الدينية ، يسكن في « حصن دير» دعي (غاغو) . هذا خاصة بالنسبة للمنذورات من صنف (انتو) و (ناديتو) . وكان الآباء يخصصون لبناتهم المنذورات حصة من ممتلكاتهم أطلق عليها بالاكدية (شريكتو) لكي تستفيد منها الكاهنة في حياتها ، حتى تؤول بعد وفاتها الى بيت ابيها .

وكانت الكاهنات ، من صنف (انتو)

خاصة ، يحتلن الصدارة في قوائم الشخصيات المهمة في المجتمع . بل كن يعتبرن بمثابة زوجات للالهة الذين يكرسن لهم خدمتهن .

وقد أسهب اكثر من باحث في التأكيد على دور المرأة ــ الام كمصدر للتكاثر ومعين للخصب. وأوضح العلامة كريمر العلاقة القائمة بين «المرأة» في الاساطير السومرية ، وبين « حواء » التوراة ، « أم كل حي » . ويستند العلماء في ابراز دور المرأة كأم ومصدر للحياة ، سواء الى أولى المنحوتات التي كانت تبرز المرأة وجسدها واعضاءها التناسلية ، ونماذجها متوفرة في العديد من المتاحف ، كما الى النصوص المكتوبة . نذكر على سبيل المثال هذا الدعاء السومري الى الالهة (انانا) المكتوب بحدود سنة ١٨٠٠ ق . م :

« ايتها السيدة !
ان ثدييك هما حقلك

وحقلك الواسع الممتد ، الذي يسكب النبات
وحقلك الواسع الممتد ، الذي يسكب الحنطة
والماء متدفقا من العلى ــ للمولى ــ والخبز من العلى
الماء متدفقا من العلى ــ للمولى ــ والخبز من العلى
اسكبي للمولى المأمور ليشرب منك »

ومهما قيل في وصف الآلهة ونعتها بالقاب وصفات تكيل لها المديح والتبجيل ، فان الالهة (انانا ــ عشتار) تحتل لا شك مركز الصدارة ، فهي الام والزوجة ، وربة الجمال والحب . ولعل السومريين أخذوا عن قدامى سكان وادي الرافدين والجزيرة العربية عبادة هذه الالهة ، كما يتضح من الادلة اللغوية والآثارية . غير ان ما يهمنا هنا هو التاكيد على ان (انانا ــ عشتار) جمعت فيها جل تصورات انسان وادي الرافدين عن المرأة

وادوارها العديدة ، لذا فهي ليست الهة الحب والجنس والجمال والانوثة وحسب ، وانما تجسيد للمرأة ووظائفها كأم وزوجة وحبيبة وشريكة . وهنا ايضا نستعين بقصيدة جميلة كتبت في عهد الملك البابلي (آمي ــ ديتانا) الذي حكم من سنة ١٦٨٣ الى ١٦٤٧ ق . م ، وهي في وصف الالهة (انانا ــ عشتار) :

« الحمد للالهة لاكثر الالهات رهبة
والاجلال لسيدة الشعوب ، لاعظم الهة بين (الايكيكي)
الحمد لعشتار ، لاكثر الالهات رهبة
والاجلال لسيدة الشعوب ، لاعظم الهة بين (الايكيكي)
لقد ألبست السرور والحب
وحملت بالحيوية والسحر والرغبة

عشتار قد ألبست السرور والحبي
وحملت بالحيوية والسحر والرغبة
حلوة الشفتين وفي فمها الحياة
وعند ظهورها يكتمل السرور
هي الجليلة وعلى رأسها وضعت الحجب
قوامها جميل وعيناها مشرقتان
الالهة ــ معها المستشار ــ وفي يدها تمسك بمصير كل شيء
وفي نظرتها تجد الفرحة والعظمة والاله الحافظ والملاك الحارس
انها تركن الى الرحمة والمودة وتهتم بهما
والى جانب ذلك فانها تتصف حقا بالرضى
وتصون (المرأة) سواء كانت أمة أم حرة أم والدة
من ذا الذي يوازيها في العظمة ؟
عشتار ، من ذا الذي يوازيها في العظمة ؟

احكامها قوية ومعظمة وجليلة
هي المنشودة من بين الالهة ، مقامها عظيم
وكلمتها محترمة وسامية بينهم
عشتار ، مقامها عظيم بين الالهه
وكلمتها محترمة وسامية بينهم
هي ملكتهم وهم باستمرار ينفذون اوامرها
كلهم يسجدون امامها
ويستقبلون نورها امامها
النساء والرجال يعبدونها حق العبادة
كلمتها قوية في مجلسهم : انها العليا
عشتار تسندهم امام (آنو) ملكهم
تركن الى العقل والفطنة والحكمة
انهما يتبادلان المشورة : هي وسيدها (آنو)
وفي قاعة العرش يجلسان سوية
في القاعة المقدسة ، منزل الفرح
ياخذ الالهة اماكنهم امامها

ويصغون بامعان الى اقوالهما

اما الملك الذي اختاروه وأحبوه في قلوبهم

فانه يقدم بسخاء ضحاياه المقدسة

(آمي ديتانا) يقدم امامهم عجولا مسنة وغزلانا

هي بمثابة القرابين المقدسة من يديه

والالهة مسرورة لان تطلب له من زوجها

(آنو)

حياة طويلة مستديمة

لقد منحت عشتار وصممت ان تعطي

الى (آمي ديتانا) حياة طويلة

واخضعت له باوامرها

جهات العالم تحت قدميه

وجموع الشعوب كلها

صممت على ربطهم بنيره » .

ومعروف هو دور (انانا ـ عشتار) في اسطورة نزولها الى العالم السفلي ومأساة (دموزي) لذا كان يتردد ذكرها في مناسبات خاصة ، كما في اقبال السومريين على الزواج ، حيث كان يرتفع مثل هذا الدعاء من اجلهم :

« عسى ان تمنحك (انانا) زوجة دافئة الاطراف تضطجع لك

وعسى ان تمنحك اولادا اقوياء السواعد

وان تجد لك منزلا سعيدا ! »

و (انانا) الموجودة في فكر وحياة العراقيين القدامى كالنور والهواء ، نراها تغدو مثالا لتحرر المرأة واطلاق حريتها في اختيار شريك الحياة ، فياتي في اسطورة سومرية قديمة ، بان (انانا) ترفض الراعي « الذي يملك كثيرا » لكي تتزوج « الفلاح الذي يجعل النباتات تنمو بغزارة ... والغلة تنمو بغزارة » . ولا ترضخ للراعي الا بعد

ان يتفق الراعي والفلاح ، وفي ذلك رمزية واضحة، مفادها تحقق الازدهار بفضل الانسجام الحاصل بين المزارعين ورعاة الماشية ...

يقودنا كل ذلك الى التصريح ، مرة اخرى ، اننا لن نفهم انسان وادي الرافدين ، بالشكل الصحيح ، الا اذا اعتمدنا النصوص الادبية خاصة، وفي مقدمتها الاساطير والملاحم والادعية ، فهي تكشف لنا باجلى بيان فكرة الانسان العراقي القديم عن ذاته ، وعن الكون ، معبرة عن تصوراته وطموحاته . لذا لا بد لنا من تناول ملحمة شهيرة، بل واعظم الملاحم واقدمها طرا ، للكشف من خلالها عن ملامح وأوجه انسانية انسان وادي الرافدين ، ونعني بها (ملحمة كلكامش) .

انسان كلكامش

ترجع (ملحمة كلكامش) في الاساس السومري الى مطلع الالف الثالث قبل الميلاد ، وهي بذلك من أقدم النصوص الادبية المعروفة . وبينما ياتي اطلاعنا على الادب الكنعاني او المصري او الفارسي او الهندي ناقصا ، لان نصوص هذه الآداب عرفت عبر العصور تحويرا واضافات تبعدنا احيانا عن اصالة الفكر فيها ، نلقى بعكسها حضارة العراق القديم بنصوصها الاصلية لانها مكتوبة على الواح حجرية او طينية منذ نيف وخمسة الاف سنة .

وكما يقول الكاتبان دياكونوف وترافيموف فان ملحمة كلكامش تثير اهتماما نظريا كبيرا ،

سواء لانها أقدم من كل ما هو معروف من الملاحم الكبرى ، فهي قد كتبت قبل ملاحم هوميروس باكثر من ألف عام ، وسواء لانه يمكننا متابعة تطور نص هذه الملحمة عبر العصور الاكدية والبابلية والاشورية ، ليس عن طريق تحليل النص وحسب ، بل وعن طريق تعدد نسخ الملحمة العائدة الى أزمنة مختلفة .

ولا بد من مقدمة ولو وجيزة في الرمز والواقع لتفهم رمزية الملحمة .

الكون سر ، والانسان سر الاسرار . مهما بلغ المرء شأوا من النبوغ والتقدم ، فكرا وعلما ، يظل يتحس في قرارة ذاته ، وفي حياة الاخرين ، وفي الكون ، جوانب خفية وابعادا مجهولة ، تسمو به حينا الى درجات عالية من الرفعة ، وتنحط به حينا اخر الى مستويات وضيعة دنيئة . فتبعث فيه متناقضات كيانية عنيفة وصراعا وجوديا دائما .

وفي هذا كله تكمن ايضا قيمة الانسان ، اذ يتلمس الجزئيات في حواسه ، ويحتضن الكون بشمولية فكره وعمق وجدانه ، فيرى ذاته خفيفا كالظل ، كالنسر ، عاليا كالجبل ، كالسماء ، عظيما كالبحر ، كالكون ، قريبا جدا من الله ، بينما يصطدم بشدة بقسوة الجماد ، وتتفاعل احاسيسه وافكاره في وحدة وجودية ديالكتية ، وكأنه كثرة في واحد ، فيجد ويناضل ليجد التناغم والانسجام .

ولئن بلغ تفسير هذه الظاهرة وعمق عيشها ، عبر عمر الانسان المديد ، مظاهر شتى ومحاولات متضاربة ، بل كان واقعها مقياسا لتقدم الانسان وتأخره ، فان البشرية لجأت الى الرمز كأداة تعبير عن صراعها المستديم مع ذاتها ، وعن علاقتها ببقية الموجودات . واتخذ الرمز ، في فترات زمنية ، مفهوما متميزا عن الواقع ، فكنا حيال ثنائية ، كثنائية الروح والمادة ، والنفس والجسد ، والفكر

والحواس ، والدين والدنيا . هذا ما الحنا اليه في بداية بحثنا ، كما وفي تضاعيفه .

غير ان تطور الفكر الانساني يقودنا اليوم اكثر فاكثر الى القضاء على كل ثنائية وازدواجية ، ويلح علينا في التأكيد على الوحدة في الانسان والكون ، ووحدة الانسان والكون . وهذا من اصالة فكرنا العراقي القديم ، عبر عنه انسان وادي الرافدين عبر اشكال ونصوص رمزية .

وفق مفهوم كهذا يكون للرمز ، كلاما كان او كتابة ، صورة او حركة ، تجسيدا للواقع ، شخصا كان هذا الواقع أم فكرة ، حقيقة أم أمنية. ويتأتى ذلك من سببين رئيسين : الاول ، طبيعة الانسان التي لا تستوعب الوجود الا من خلال المحسوس ، والثاني ، عدم المقدرة على سبر اغوار كل الابعاد الكونية والانسانية . الامر الذي يحدو بالمرء ، في أشد فترات الرقي الحضاري ، الى

استخدام الرمز كوسيلة للتعبير عن فكره ومشاعره . وما الشعر والرسم والنحت والموسيقى والرقص والسينما والمسرح سوى مظاهر لذلك .

فللرمز بعدان ، هما : الفكر والحس . وهو بذلك أقرب شيء الى الواقع الانساني ، حيث البعدان الروحي والمادي ، والفكري والحسي ، متلازمان في وحدة لا تنفصم ، هي وحدة الوجود، وحدة الانسان .

ولو استعرضنا رموز الانسان ــ كلكامش عبر التاريخ ، لكنا حيال كشف يستدل منه تطور في المفاهيم الخاصة بالانسان ودوره في الكون .

فالالهة (نسونا) ، او البقرة الوحشية المقدسة ، هي والدة كلكامش . والبقرة رمز الخصب ، وهي الام تحتضن وليدها وترضعه من حليبها . ويأتي كلكامش ، في أختام ومنحوتات

قديمة ، بصورة اسد على هيئة انسان يصارع ثورا وحشيا . والثور الوحشي بهيئة انسان هو رمز (انكيدو) عدو كلكامش في بادىء الامر ثم خله الوفي . والاسد رمز للقوة ، وكذلك الثور ، لكن العراقيين القدامى يريدونهما بصورة بشرية ، لانهم لا يقيسون وزنا للقوة الصماء الغاشمة ، بل للقوة الانسانية العاقلة . اما الثور الوحشي فرمز الشر والجهل والعبودية والظلم ، لذا كان من واجب الانسان القضاء عليه ، فيقضي بذلك على التوحش والاستعباد .

ويظن بان اسطورة كلكامش وانكيدو تسبق شخصيتهما ، هذا ان وجد في التاريخ شخص اسمه كلكامش ، واخر اسمه انكيدو . ويرجع عمر الاسطورة، كما اسلفنا، الى حوالي ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد ، بينما تأخذ ملحمة كلكامش بالتبلور ، في نصها السومري القديم ، حوالي

السنوات ٢٨٠٠ — ٢٧٠٠ ق . م ، كما نستدل على ذلك من عدة أختام وجدت في عيلام . وتحمل قيثارة (اور) الشهيرة ، وهي من حوالي سنة ٢٦٠٠ ق . م ، تطعيما على العاج لكلكامش وهو يصارع الثور الوحشي ، بينما نجد ختم (لوكال — نبدا) حاكم لكش يصور كلكامش انسانا وهو يصارع الاسد والوعل ، ويصور انكيدو ايضا انسانا وهو يصارع الاسد . وتاتي نصوص الملحمة المكتشفة في مكتبة آشور بانيبال لتدعم ما ذكرناه، حتى نصل الى مرحلة تصوير كلكامش كشخص سومري — أكدي ، أي بشكل انسان طبيعي ، يرتدي ثوبا قصيرا هو زي المحاربين او الصيادين، بينما يصور انكيدو عادة بشكل حيوان عار . ثم تأخذ المواضيع الكهنوتية والرسمية بالطغيان ، بعد سنة ٢١٠٠ ق . م ، على المواضيع الرمزية

القديمة ، حتى تشتد من جديد قوة التعبير الرمزي، فنلقى ، في حدود القرن الثامن قبل الميلاد ، كلكامش وانكيدو وهما مرتديان ثيابا آشورية فاخرة ، وتريحات شعرهما على الطريقة الاشورية وذيل الثور ــ رمز انكيدو ــ قد تحول الى فرشاة تتدلى من الحزام ؛ ومحاولته القيام بخنق الاسد كمحاولة المرء خنق قط ، فتفقد الاسطورة لكثير من مقوماتها التي كانت الرموز تعطيها معناها وحياتها .

ومهما يكن من أمر ، فان شخصيتي كلكامش وانكيدو الاسطوريتين تستمران عبر العصور متسمتين بطابع فيه مسحة جلية من البطولة والعظمة كما فيه روح انسانية عالية ، وهي سمة حضارة بلاد وادي الرافدين .

انسان كلكامش هو «الذي رأى كل شي»*، وهو « الذي عرف جميع الاشياء » ، او هو « الحكيم العارف بكل شيء » . انه الانسان الكامل ، اذا اعتبرنا المعرفة مبدأ الانسنة الاساس، بل هي الحكمة ــ المعرفة مع التجربة الحياتية ــ الصفة الملازمة للانسان ــ كلكامش . فالحكمة لا تعني المعرفة المجردة والنظرية ، انما هي استيعاب ما في الوجود بدءا من الذات عن طريق الحس ، وهضم هذه المعارف بحيث تغدو دما يسري في شرايين الشخص في المجتمع . الحكمة هي معرفة الذات ، على ضوء الماضي والتاريخ والتراث ، وهي التطلع نحو مستقبل افضل ، وذلك بملء الواقع حضورا غنيا . وامام الحكمة لا يبقى سر دفين . لذا نرى بطل الطوفان يدرك سر الالهة ، ويعمل

* الكلمات التي بين معقفين هي نصوص (ملحمة كلكامش) كما جاءت في طبعة الاستاذ طه باقر وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٥ .

على تدبر أمره وتحقيق مصيره . ونلفى كلكامش يجتاز الجبال المستعصية لكي يكشف عن لغز الحياة والموت .

الحكيم هو من اختبر الحياة . انه الانسان الواعي البالغ ، باني المدينة والمدنية ، لان العمران تجربة انسانية ناجحة تشمل كل صعيد . ولا عجب بعد هذا كله ان يكون الحكيم هو المؤرخ الحق ، فالتاريخ مدرسة تربي الاجيال الصاعدة .

وعلاوة على الحكمة ، يتصف انسان كلكامش بالقوة . لقد خصته الالهة بالبطولة ، اذ نقرأ :

« كان طوله احد عشر ذراعا ، وعرض صدره تسعة اشبار

ثلثان منه اله ، وثلثه الاخر بشر

وهيئة جسمه مخيفة كالثور الوحشي

وفتك سلاحه لا يصده شيء

وعلى ضربات الطبل تستيقظ رعيته »

انه مكتمل القوة والفعال ، وكلكامش وانكيدو نظيران في البأس . انهما كوكبان او شهابان ، وأقوى من في البلاد ، عزمهما عزم الالهة. لذا نراهما يجتازان غابة الارز الموحشة ويقتلان العفريت (خمبابا) . وتتيح لهما شجاعتهما ممارسة النزال والعصاب ، فلا يحجمان ولا يتخلفان عن اقتحام السبل المسدودة والبحار المخيفة .

وعظيم ان يتصف الانسان بالقوة والبطولة، في زمن كان الحول الشخصي هو المعول عليه في التغلب على الصعاب وقهر الطبيعة ، وقبل اختراع الآلة والسلاح كما في العصور المتأخرة .

الحكمة والقوة متلازمتان في انسان كلكامش لذا فهو كامل الحسن والجمال . لقد أحسن الاله العظيم خلقه ، حتى ان الالهة بكته عندما أباد

الطوفان البشرية • لكن الطوفان نفسه كان في صالح الانسان •

انسان كلكامش « صورة كاملة تامة » • لا ثنائية ولا ازدواجية ، بل توازن كياني ووجداني عظيم •

لا فرق بين الرجل والمرأة في ملحمة كلكامش• ورغم العقلية السائدة في جميع الحضارات والعهود الواقفة الى جانب الرجل ، فان البطلين كلكامش وانكيدو ليسا رجلين للانتقاص من قيمة المرأة • ففي مصاف الالهة تحتل الاناث ادوارا رئيسة : (أرورو) هي خالقة كلكامش ، (ننسون) امه ، وعشتار ربة عظيمة •

ودور المرأة من الناحية البيولوجية والجنسية واضحة تماما • وتقترب الالهات في ذلك من البشر، لذا نرى عشتار تنادي كلكامش قائلة :

« تعال يا كلكامش وكن عريسي الدي اخترت
امنحني ثمرتك أتمتع بها
ستكون انت زوجي واكون زوجك »

وتأتي عملية الولادة بتصوير بديع • فان ارورو عندما تريد خلق غريم كلكامش «تصورت في لبها صورة لآنو ، وغسلت ارورو يديها ، واخذت قبضة من طين ، ورمتها في البرية ، وفي البرية خلقت (انكيدو) الصنديد ، نسل (ننورتا) القوي » •

ووظيفة المرأة ، في ملحمة كلكامش ، ليست الولادة والخصوبة والتكاثر بالدرجة الاولى ، بل مشاركة الرجل في الحياة • ولها دور كبير في صيرورة الانسان الى التمدن • فان انكيدو ، قبل اتصاله بالمرأة ، أشبه بالوحش :« مولده في التلال ... يأكل العشب مع الظباء ، ويرد الماء مع الحيوان ، ويفرح لبه مع حيوان البر عند مسقى

الماء » ، لكنه عندما يتصل بها ، ويتعلم منها فن المرأة ، ينجذب اليها ويتعلق بها • تخونه قوته الجسدية عما قبل ، لكنه يغدو « فطنا ، واسع الحس والفهم » • وتخاطبه المرأة قائلة : « صرت تحوز على الحكمة يا انكيدو ، واصبحت مثل اله ! » •

الانسان الفرد متوحش ، والانسان الاجتماعي حكيم ، واجتماعية المرء الطبيعية في وحدة الرجل والمرأة وتعاونهما على خلق مجتمع بشري متمدن• لذا تأخذ المرأة انكيدو الى (اوروك) ، حيث الحضارة والاسواق والبيت المقدس ، فيترك « المتوحش » غابته الى الابد • وتلبس المرأة الرجل شقا من ثيابها ، وتعلمه كيف يؤكل الخبز ويشرب الشراب وينظف جسده ويمسحه بالزيت ، لكي يغدو انسانا • وهي بذلك انما تؤدي دور

الالهة ، ودور البشر تجاه صغار الالهة ، كما اسلفنا •

لا نعرف شيئا عن الحب في ملحمة كلكامش الا من خلال زاوية ضيقة محصورة في حوار كلكامش وعشتار • فتقول عشتار :

« تعال يا كلكامش وكن عريسي الذي اخترت
امنحني ثمرتك أتمتع بها
ستكون انت زوجي واكون انا زوجك
ساعد لك مركبات من حجر اللازورد والذهب
عجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز
وستربط لجرها (شياطين الصاعقة) بدلا من البغال الضخمة
وفي بيتنا ستجد شذى الارز يعبق فيه اذا ما دخلته

اذا ما دخلت بيتنا فستقبل قدميك العتبة والدكة

سينحني خضوعا لك الملوك والحكام والامراء

وسيقدمون لك الاتاوة من تاج الجبل والسهل

وستلد عنزاتك (ثلاثا ثلاثا) وتلد نعاجك التوائم

وحميرك ستفوق البغال في الحمل

وسيكون لخيول مركباتك الصيت المعلى في السبق

وثورك لن يكون له مثيل وهو في نيره »

وبالرغم من كل هذا الاطراء يرفض كلكامش مطلب عشتار ، لان كلامها صادر عن عاطفة مشبوبة ، لا عن حب حقيقي ، فهي اللعوب المتقلبة، فيجيبها بقوله :

« أي خير سأناله لو اخذتك ؟

انت ! ما انت الا الموقد الذي تخمد ناره في البرد

انت كالباب الخلفي لا يحفظ من ريح ولا عاصفة

انت قصر يتحطم في داخله الابطال

انت فيل يمزق رحله

انت قير يلوث من يحمله

انت قربة تبلل حاملها

انت حجر مرمر ينهار جداره

انت حجر (يشب) يستقدم العدو ويغريه

وانت نعل يقرص قدم منتعله

أي من عشاقك من أحببته على الدوام ؟

وأي من رعاتك من أرضاك دائما ؟ ... »

واذ تشكو عشتار كلكامش الى ابيها (آنو) لانه عدد مثالبها وفحشاءها ، يجيبها ابوها بانها

هي التي تحرشت به فجنت ثمرة عملها . وجلي من هذا النص بان كلكامش يرفض الابتذال والعهر ، الامر الذي يحملنا على فهم النص الاخر بمعنى اظهار قوته عندما لا يترك عذراء لحبيبها ...

وتقييم الجنس في ملحمة كلكامش باد للعيان، فعشتار تطلب من كلكامش ان يمنحها ثمرته لتتمتع بها ، وتطلب من حبيبها (ايشولنو) ان يدعها تتمتع برجولته ، وان يمد يده ويلمس مفاتن جسدها . اما البغي فتكشف عن نهديها امام انكيدو ، وعن عورتها ، لكي ينال من مفاتن جسمها ، فتراوده وتبعث فيه الهيام ، فينجذب اليها ، وتنضو عنها ثيابها فيقع عليها ، ويتعلم منها وظيفة المرأة وفنها ، ويتعلق بها ، ويلبث يتصل بها ستة ايام وسبع ليال ، حتى يشبع من مفاتنها . والزوجة التي بين احضان زوجها يغمر قلبها الفرح ، بينما المنزل المهيأ جيدا يخلق جوا دافئا للمحبين .

ويرتفع الحب في جملة نصوص الى ابعاد انسانية رفيعة ، كما في تعبير الالهة (ننسون) اذ تتخذ انكيدو ولدا لها مع انه ليس من رحمها ، وفي الصداقة المتينة التي تربط بين قلبي كلكامش وانكيدو فيغدوان صاحبين وخلين متعاونين في السراء والضراء .

وكما يتعد الادب العراقي القديم بصورة عامة ، وملحمة كلكامش بصورة خاصة ، عن امتهان الجسد والجنس ، كذلك نراه يتجنب اعتبار الجسد شيئا منحطا ، انما لجسد الانسان منزلة عالية واعضاؤه كريمة . فالالهة ننسون ترتدي حلة لائقة ، وتتزين بحلى تناسب صدرها ، وتضع على رأسها تاجا . والتمدن يقتضي النظافة والزينة ، لذا ينظف انكيدو شعره ، ويمسح جسمه بالزيت، ويلبس اللباس فيصير كالعريس . ويغسل كلكامش شعره الطويل ، ويرسل جدائل شعره على كتفيه ،

ويخلع لباسه الوسخ ويكتسي حلاً نظيفة ، ويرتدي حلة مزركشة يربطها بزنار ، فتراه عشتار وتشتاقه زوجا نظرا لجماله • جمال الجسد وزينته ونظافته في هذا العالم من الضرورة بمكان ، اما في العالم السفلي فعلى عشتار ان تخلع ثيابها وزينتها وتتخلى عن الجمال ، كما تسهب في ذلك مأساة (نزول انانا ــ عشتار الى العالم السفلي) •

لا قيمة للانسان الوحيد ، في ملحمة كلكامش، لان الانسان الاكمل هو الاجتماعي والصديق والمتعاون مع غيره في سبيل دفع الاذى عن الاخرين وتحقيق السعادة للجميع •

لم يكن بوسع البشر ان يحلموا بشخصية أعظم وأكمل من شخصية كلكامش ، سواء في الحكمة أم بالقوة ام بالجمال ، ومع ذلك لم تنقطع مظالمه ليل نهار ، لذا نرى الالهة تخلق غريما له « يضارعه في قوة اللب والعزم » لكي يكونا « في

صراع مستديم » ، وفق ديالكتية الحياة ، وذلك لكي تنال اوروك « السلام والراحة » • وينتهي الصراع الحاد بين البطلين الى تعارف وتحابب ، فتنشا بينهما اواصر صداقة متينة ما تلبث ان تلد تعاونا وثيقا وملازمة دائمة لا يقطع حبلها سوى الموت ، بل وستمتد عبر الموت ايضا •

الانسان المتفرد اشبه شيء بالوحوش ، بينما تعرفه على بني جنسه يصيره انسانا ، وتتيح الحياة الاجتماعية للبطلين ان يعملا معا على ازالة الشر من الارض ، فيقتحمان السبل المسدودة،ويجتازان غابة الارز الموحشة ، ولا يحجمان عن اقتحام الصعاب• « سيحمي احدنا الاخر » ، يخاطب كلكامش صديقه انكيدو ، « واذا ما سقطنا في النزال ، فسنخلف من بعدنا اسما خالدا ! » • وللقضاء على العفريت ، رمز الشر ، يقتسمان العمل بينهما • وعندما يرقد انكيدو طريح الفراش ،

تنهمر الدموع من عيني كلكامش ، ويتالم جدا ، لانه لا يرى « صاحبه العزيز » ، فانكيدو صاحبه وخله الذي « أحبه حبا جما » . ويحاول كلكامش القيام بالمستحيل في سبيل انقاذ صديقه وارجاع الحياة اليه ، فيعبر الجبال ، ويقطع البحر،للحصول على نبات الحياة الجديدة . ولا يفعل ذلك لصالح انكيدو وحده ، وانما ليشرك بالحياة جميع الناس.

وخلاصة القول ان انسان كلكامش كامل الحكمة والبطولة والجمال،انه اجتماعي ذو اساس راسخ متين من الصداقة والتعاون ، متعلق بارضه ووطنه وشعبه ، يبذل الكثير في سبيل اسعاد الاخرين ، ضعيف ازاء الموت ، ولكنه يرفض مصير البشرية : « ان يصير ترابا » ، وان يضطجع فلا يقوم ، ولا يرضى ان تستاثر الالهة وحدها بالحياة والخلود لنفسها ، لذا نراه يعمل جهده على مقاومة الشر ، بشجاعة وجلد ، وشعاره : « الموت في

النزال خير من الموت في الفراش ! » . يناضل ابدا ، ولا يهدأ الا في الكشف عن لغز الحياة والموت ، ويتساءل باستمرار عن طريق النجاة فيقول :

« أين الطريق ... أين الاتجاه اليه ؟
دلني على الطريق اليه
فاذا استطعت الوصول اليه فحتى البحار ساعبرها !
واذا تعذر بلوغ مرادي فسأظل أجول في الصحارى ! » .

وانسان كلكامش يتجسد في البطلين : كلكامش وانكيدو .

انكيدو انسان بدائي متوحش ، لكنه يحمل عمق الصحراء وابعادها ، لذا نراه يغدو انسانا متمدنا ، ويتعاون مع كلكامش على ازالة كل شر من وجه الارض . وكلكامش اسطورة انسان

حكيم وملك بطل ، يخرج من اكتفائه وعالمه المتحضر الى خضم بحر الحياة ومتاهات غابتها ، ويبتد ، بمعية صديقه وشعبه ، من نصر الى نصر، حتى يصطدم بالمستحيل ، الموت ، من دون ان يتراجع ، فيقارع كل ما يحول دون اكتمال انسنته، وقربته « ملأى بالماء النقي على الدوام » وقلبه مضطرب لا يستقر حتى يحل نبات الحياة الى مدينته ويشرك به جميع الناس .

انسان (ملحمة كلكامش) عظيم الاتزان في تكوينه وواقعه ، عظيم وعبقري ، بل نموذج يحق لكل الناس ، في كل زمان ومكان ، أن يحتذوا به.

الانسان هدف وقمة

بوسعنا الاستفاضة في تشخيص ملامح اخرى لانسان الرافدين ، لكننا نكتفي بهذا القدر ، آملين اننا وسعنا لوحة لا بأس باكتمالها . وناتي الآن على تلخيص أهم المعطيات والافكار والابعاد.

ينبغي اعتبار عالم الالهة ــ في أدب وادي الرافدين ــ قريبا جدا من عالم البشر ، وكأنه عالم انساني اكثر منه غيبيا او سحريا ، لانه انعكاس لتصورات انسان وادي الرافدين عن ذاته ، مع شيء من التضخيم والتسامي ، الامر الذي يكشف لنا عن تطلعاته وطموحه ، لا سيما من حيث الحيل والحكمة والخلود . وقد رأينا صغار الآلهة يتعلمون من البشر كيف يأكلون ويلبسون

ويعيشون ، فهم أشبه بالانسان المتوحش الذي يغدو « متمدنا » . ويجري تصعيد في الافكار والمفاهيم ، فنرى الانسان يقوى على البقاء رغم ارادة الآلهة ، كما في الطوفان ، او يتحدى المحتوم، كما في الانسان ـ كلكامش .

ولا يحق لنا ان نبالغ في الفروق بين فرد وفرد ، وفئة وفئة ، وجنس وجنس ، وحالة وحالة في المجتمع العراقي القديم . وكلما توغلنا في القدم، كلما ضعفت هذه الفروق ، وتلمسنا أصالة انسانية رفيعة تبتعد عن التشويهات التي لحقت بالمجتمعات البشرية في العصور التي تلتها . يكفينا عن ذلك شواهد ثلاث : دور المرأة ومنزلتها، تواضع الحاكمين وحرصهم على تحقيق العدالة والخير ، وتقييم العمل واعتماده في العمران . وهذا كله قبل نيف واربعة آلاف سنة .

نذكر هنا مثالا اضافيا نستشف من خلاله

قيمة المرأة ومنزلتها في المجتمع العراقي القديم ، والمثال سومري في مدح (انانا) رمز المرأة المثالية العظيمة :

« سيدة جميع النواميس الالهية ؛ الضياء اللامع
المرأة التقية التي تتسلح بالاجلال ، محبوبة الارض والسماء
كاهنة الاله (آنو) ، بكل الحلى العظيمة
صاحبة التاج الفتان اللائق بالمركز الكهنوتي الرفيع
التي نالت يداها النواميس السبعة كلها
يا سيدتي ، انت حارسة النواميس الالهية العظيمة كلها ...
يا صاحبة المقام الاول ...
انت التي منحها الاله (آنو) النواميس

الملكة التي تمتطي ظهر البهائم
وتقدر القرارات بموجب اوامر الاله آنـو المقدسة

يا صاحبة كل الشعائر العظيمة ...
يا مخربة البلدان الاجنبية ...
وفي خضم المعركة كل شيء يتحطم امامك ..
من يستطيع ان يهدىء قلبك الثائر ؟...
السيدة التي ترخي العنان
السيدة التي تفرح القلوب ...
السيدة المعظمة في الارض
في المدينة التي تعلن الولاء لك ، تكـون الارض لك ...

ايتها السيدة التي تسمو على آنو ، من ينكر الولاء اليك ؟

انت يا صاحبة النواميس الالهية ، يا ملكة الملكات العظيمة

خليقة الرحم المقدس ، أسمى من الام التي ولدتك .

العالمة الحكيمة ، سيدة جميع الارضيين
يا رازقة الجماهير ، ها انا انشـد أغنيتك المقدسـة
ايتها الالهـة معطيـة الحياة ، يا صاحبـة النواميس
انه لفخر ان ينادى باسمك
ايتهـا الرحـوم ، ايتهـا المرأة الصالحـة المتألقة ... »

وبشأن الشاهـد الثاني لنقرأ من جديـد مقدمة شريعة حمورابي حيث « الامير التقي الذي يخشى الهته » يريد ان يوطد « العدالة في البلاد » ويقضي على « الخبيث والشـر ، لكي لا يستعبد القوي الضعيف ، ولكي يعلـو العدل كالشمس فوق ذوي الرؤوس السود (أي الظافرين)، ولكي

ينير البلاد من أجل خير البشر » . والملك قدير ، بطل ، ملك الملوك ، حامي البلاد ، وهو في الوقت عينه مطيع وتقي ومتأمل ورزين ومتكامل واميز ورع وراعي الرعية ، بل وأشبه « بالاب الحقيقي للشعب ، الذي مكن البلاد ان تنال القيادة الرشيدة والحكومة الحسنة » ...

ولنستمد بشأن الشاهد الثالث ما جاء من تقيم للعمل في قصيدة (الفاس) ، بها تبنى الدار والمدن ، فيتحقق الازدهار .

ويطول بنا المجال لو اردنا تلخيص جميع المنجزات الحضارية التي قام بها انسان وادي الرافدين منذ اقدم العصور . فهو مؤسس اولى الدول والامبراطوريات ، ومبتكر اول نظام للري والزراعة ، ومشرع لاول القوانين والانظمة ، ومخترع لبدايات الكتابة واولى قصص الخلق والطوفان واساطير العالم السفلي وملاحم العظمة

وتنازع البقاء ، ومنشد لاولى قصائد الحب والترانيم والصلوات ، ومشيد اولى المدارس والمكتبات . وهو أول من استخدم الفضة والذهب للبيع والشراء والزينة ، واخترع طرق التجميل والتزويق ، وأبدع أولى المنحوتات والزخارف ، وسكن اولى الدور الطينية والحجرية ، وشيد اول الهياكل العظيمة واجمل الزقورات في العالم وفق هندسة ذات اساس رياضي محكم .

هذه وغيرها من ابتكارات تجعلنا أن نقر خاشعين بعظمة انسان وادي الرافدين ، في اقدم عصور التاريخ ، معترفين له بالفضل الاكبر في ارساء قاعدة حضارية للمدينة ، ليس لها مثيل في تاريخ كل الشعوب والبلدان الاخرى . وأهم ارث حضاري ما حمله الانسان العراقي قديما من فكر ومفاهيم وقيم ، عن ذاته ، وعن الكون ، وقد أفضنا فيه .

وخير ما نختم به بحثنا هذا اسطورة (أدابا) الاكدية ، وهي من حدود القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وفيها وصف للانسان المتحلي بالفهم والحكمة والقدرة .

« كان أمره نافذا ...

جعله كاملا بالفهم العميق ليعرف خطط البلاد واسرارها

لقد منح الحكمة ، ولكن لم يمنح الخلود

في تلك الايام ، في تلك السنين

خلق الاله (آيا) حكيم (اريدو)

وجعله انموذجا للبشر

الحكيم ــ الذي لا يوجد من يستطيع رد أمره ــ

القادر ، المدرك ، العظيم بين الانوناكي هو ،

الطاهر ، النظيف اليدين ، الكاهن المشافي ،

المشرف على الشعائر

كان يخبز مع الخبازين ، ويصنع الخبز مع خبازي اريدو

كان يجهز الخبز والماء الى اريدو في كل يوم

ويعد ، بيديه النظيفتين ، مائدة القرابين

وبدونه لا تنظف المائدة

يقود السفينة ، ويضطلع بصيد الاسماك لاريدو ... »

ستظل البشرية مدينة لانسان وادي الرافدين وحضارته ؛ وستظل تغترف من اصالة الفكر النير الذي كان لهذا الانسان ونكتشف عمقا وابعادا انسانية واقعية وسامية تساعدنا على بنيان الذات والمجتمع بنيانا متوازنا متكاملا ، لان الانسان هو ابدا هدف وقمة .

المصادر والمراجع

١ ــ صموئيل نوح كريمر ، من الواح سومر ترجمة طه باقر ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢ ــ نفس المؤلف ، الاساطير السومرية ، ترجمة يوسف داود عبدالقادر ، بغداد ١٩٧١ .

٣ ــ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة بغداد ١٩٧٣ .

٤ ــ نفس المؤلف ، ملحمة كلكامش ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٣ .

٥ ــ انيس فريحه ، اساطير من الادب السامي ، بيروت ١٩٦٧ .

٦ ــ دياكونوف ــ ترافيموف ، جماليات ملحمة كلكامش ، ترجمة عزيز حداد ، بغداد ١٩٧٣ .

٧ ــ عبدالحق فاضل ، هو الذي راى ، ملحمة تلقميش ، بيروت ١٩٧٢ .

٨ ــ فاضل عبدالواحد علي ، عشتار وماساة تموز ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٣ .

٩ ــ نفس المؤلف ، الطوفان ، بغداد ١٩٧٥ .

١٠ــ فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٣ .

١١ــ ليونارد وولي ، وادي الرافدين مهد الحضارة تعريب احمد عبدالباقي ، مكتبة المثنى ، بغداد .

١٢ــ هنري فرانكفورت فجر الحضارة في الشرق الادنى ، ترجمة ميخائيل خوري ، بيروت .

١٣ــ جماعة من علماء الاثار السوفيت ، العراق القديم ، ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد ١٩٧٦ .

١٤ــ عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، الموصل ١٩٧٧ .

١٥ــ ثلما ستيان عقراوي ، المراة : دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين ، بغداد ١٩٧٨ .

١٦ــ احمد سوسه ، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ، بغداد ١٩٧٩ .

١٧- نائل حنون ، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة ، بغداد ١٩٧٨ .
١٨- اندريه بارو ، سومر ، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، بغداد ١٩٧٩ .
١٩- محاور في الفكر والتاريخ ، باشراف حميد المطبعي ، بغداد ١٩٧٩ .
٢٠- Ancient New Eastern Texts, ed. by James B. Pritchard, 3 ed. with Suppl., Princeton 1969
٢١- W. G. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, Oxford 1960
٢٢- L. Oppenheim, Ancient Mesopotamia, Chicago 1964
٢٣- Marguerite Rutten, La Science des Chaldéens, Paris 1960
٢٤- Idem, Babylone, Paris 1966
٢٥- G.R. Driver, The Assyrian Laws, Oxford 1935
٢٦- Idem, The Babylonian Laws, I & II, Oxford 1951 & 1968

٢٧- Leonard Wooley, The Sumerians, New York 1965
٢٨- Idem, Ur of the Chaldees, New York 1965
٢٩- G. Roux, Ancient Iraq, London 1964
٣٠- H.W.F. Saggs, The Greatness that was Babylon, London 1966
٣١- Idem, Everday Life in Babylonia and Assyria, New York 1967

مكتبتنا العربية

Petty Encyclopedia
A Fortnightly Cultural
Series dealing with various
branches of Science, Art,
and Literature

Issued by Dar — Al-Jahidh
Al-Khulafä Street — Baghdad

Editor-in-Chief
Musa Kraidi

المحتويات

فجر فكر اصيل	٣
نظرة انسانية متزنة	٨
اصل الانسان والكون	١٤
الانسان والعمران	٢٣
الانسان والارض	٣٧
الانسان والمجتمع	٤٥
اقدم الشرائع	٥٥
المراة	٧٢
انسان كلكامش	٨٥
الانسان هدف وقيمة	١٠٩
المصادر والمراجع	١١٨

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١٥٢٥) لسنة ١٩٨٠

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م